

الفصل الثالث

الوزراء والحياة الاجتماعية

- الوزراء والأحباس
- الوزراء والحسبة
- الوزراء والعامّة
- علاقة الوزراء بالمتصوفة
- الوزراء والآفات الاجتماعية
- الوزراء والأشراف والاحتفالات والأعياد:

الوزراء والأحباس

تنوعت الأحباس^(١) في البلاد المغربية شأنها كشأن الأحباس في المشرق، فكانت هناك أحباس المساجد والمدارس والفقراء والمساكين واليتامى والزراعي والزوجات، ويشمل أيضًا الأحباس على الأضرحة والمقابر والزوايا والأربطة^(٢) مما جعل لها دورًا كبيرًا في حل الكثير من المشاكل الاجتماعية، حيث وفرت الرعاية الاجتماعية للفقراء واليتامى والتخفيف من مآسئهم وتيسير سبل العيش والحياة الكريمة لهم، واتقاء مرارة الجوع، وتعمير البلاد الإسلامية، وتحقيق العدالة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي عامةً والحفصي خاصة^(٣).

وللتحسيس صيغ مختلفة، فتعد الصياغة الكتابية من أهمها وإلزامها لأنها

(١) الحبس والوقف واحد، والحبس بالضم ما وقف لجمع أحباس، وحبائس ويجمع الحبس على كل شيء وقفه صاحبه وقفًا محرمًا لا يباع ولا يوهب ولا يورث، هو لفظ اصطلاحى عند المالكية، واستعمل في المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، أما في المشرق الإسلامي أطلقوا عليه وقف، فيقال وقت الدار للمسكين أو يقال حبست فرسا في سبيل الله، وكلا المعنيين واحد. راجع: البرزلي: فتاوى، ج ٥، ص ٣١٦-٣١٩، كمال أبو مصطفى: -بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس، في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة؛ الإسكندرية (د-ت)، ص ١٦١، ١٦٠، كمال أبو مصطفى: الأحباس في الأندلس فيما بين القرنين الرابع والتاسع للهجرة (١٠-١٥ م)، دار نشر الثقافة، الإسكندرية، ١٩٨٩ م، ص ٨-٩؛ محمد بن عبد العزيز بن عبد الله: الوقف في الفكر الإسلامي، فضالة للنشر، المغرب، ١٩٩٦، ج ١، ص ٤١-٤٦.

(٢) كمال أبو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب: ص ٢٦-٢٧، رشا سالم: المرجع السابق ص ٣١٤. برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٩٤.

(٣) محمد بن عبد العزيز بن عبد الله: المرجع السابق، ص ١٧؛ كمال أبو مصطفى: جوانب، ص ٢٦-٢٧؛ محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٣٦٠، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٩٤.

هي التي توضح المقصود من الحبس وتحده، ويجوز التحبّيس بالإشارة مع حضور الشهود لمن عاقه مرض مهلك أو غيره، فإذا لا بد من مبدأ التصريح بالحبّيس واجب لمن لا عائق لديه وإن حدث وتعارضت الشهادتان بشأن وقف، ادعي أحد ملكيته، وادعي آخر منازعته أنه وقف، فإنه يُحكم بصالح أعدل الشهادتين^(١).

وتعددت الدوافع المفسرة لقيام عملية الأحباس، منها انتقال الحبس الخاص الى العام عند انقراض العقب، وكان ذلك أمراً وارداً في ذلك المجتمع الذي كانت تعصف به الأزمات السياسية والطبيعية، فكانت تقضى على عائلات بأكملها^(٢) وكان القاضي والخطيب هما صاحبا الحق في الاحتفاظ بإدارة الأحباس، وكان القاضي يعقد مع ناظر الحبس من حين لآخر في محاسبات معينة حددت أشكالها من أجل النظر في أهم قضاياها^(٣)

وكان نظام الأحباس معمولاً به على نطاق واسع في إفريقية الحفصية، حيث كان بمدينة تونس مديراً رسمياً للأحباس، فُكِّلَ بإدارة الأحباس

(١) إبراهيم حركات: النشاط الاقتصادي، ص ٢٠٩-٢١٠، رشاش: المرجع السابق، ص ٣١٤.

(٢) البرزلي: فتاوى: ج ٥، ص ٥٧٦-٥٧٧.

(٣) كان يجلس القاضي والناظر والشهود من أجل المحاسبة في قضايا الأحباس، في وجود الشهود وتنسخ الحوالة كلها من أول رجوع الناظر الى آخر المحاسبة وتقابل وتحقق ويرجع على مشاهدية أو كراء أو ضيف أو فريق، وجميع مستفادات الحبس، حتى يغير ذلك كله نقطة واحدة ثم يقسم على المواضع لكل حقه مع اخذ المرتبات، ومع قبض وغير ذلك من ريع الأحباس، ومن يفسد شيئاً لزمه غرمه، ومن يضيع شيئاً ويفسده فعليه غرامة. راجع الونشريسي: المعيار: ج ٧، ص ٣٠٢.

العامة، جزئياً و كلياً، مثل بيوت الصلاة والعقارات المختلفة التي كانت تستعمل مداخلها للقيام بالأعمال الخيرية، كما تدل عملية التنظيم والترتيب للأحباس في العهد الحفصي على مدى اهتمام السلاطين والوزراء بالأحباس العامة، أما الأحباس الخاصة فلم تخضع لتلك الرقابة الصارمة من قبل الإدارة التي كانت لا تتدخل الا في صورة حصول خطأ واضح أو نزاع، وكان ذلك يتم عن طريق القضاء الذين كانت صلاحياتهم ممتدة للغاية في هذا الميدان^(١) وازدهرت وتنوعت أحباس السلاطين الحفصيين و وزراءهم على الأحباس الخاصة بالعقارات على طلاب المدارس وأصحاب الزوايا وغيرهم، وذلك من أجل كسب هذه الشرائح الاجتماعية^(٢).

الأحباس على البيمارستانات

لقد كانت الرعاية الطبية في مختلف العهود الإسلامية مصحوبة بإقامة مؤسسات لمداواة المرضى وعلاجهم^(٣) وفي فترات قوة الدولة وسلاطينها ازدهرت الأحباس على البيمارستانات، حيث أقيم بتونس مارستان بناحية سيدي محرز لا يزال موجودا حتى يومنا هذا، وأحدث السلطان أبو فارس عبد العزيز الحفصي و وزراءه بيمارستان بتونس^(*) من أجل الضعاف والغرباء

(١) برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص ١٩٦.

(٢) محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص ٣٦٠.

(٣) عبد العزيز بن عبد الله: الوقف في الفكر الإسلامي، ج١، ص ١٤٥.

(*) كان مكان هذا المارستان مستشفى قديم يسمى الدمنة، والدمنة هي المستشفى أو المارستان في الاصطلاح التونسي القديم، وهي دار معدة لايواء المصابين بالأمراض المعضلة التي يحول الأمر علاجها والتي يغشى منها سريان العدوى، راجع: حسن حسني عبد الوهاب: ورقات: ج٢، ص ٤٦-٤٧.

وذوي العاهات من المسلمين، وحبس على ذلك البيمارستان أجباساً كثيرة تقوم به ومنها ما عينه لأهل الأندلس اعانة لهم على العدو في كل عام^(١) مما أدى إلى انتعاش هذا البيمارستان في العهد الحفصي. مما انعكس على اهتمام السلاطين والوزراء الحفصيين بالطب والأطباء حيث حظى الأطباء بعناية خاصة، وكانوا دائماً قريين من السلطان والوزراء، وكانوا جميعهم من المسلمين، ومن أشهر الأطباء الحفصيين أبو الحسن الروازي^(٢) ومحمد بن أندارس^(٣) وكانا في عهد السلطان المستنصر الحفصي^(٤) بل كان اهتمام السلاطين والوزراء الحفصيين بالطب والأطباء يفوق حدود الدولة الحفصية حيث أرسل السلطان ابن اللحياني الطيب محمد بن عيشون سنة ١٣١١ م سفيراً لدى ملك أراجون خايم الثاني^(٥) وكان للسلطان أبي العباس أحمد و وزراؤه اهتمام كبير بالمورستانات والأطباء بسبب وجود الطيب ذائع الصيت المشهور ابن الزرزار الذي كان يتمتع بتقدير واهتمام كبير^(٦)، فانعكس ذلك على الحالة الصحية للبلاد في فترات القوة والازدهار.

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص ١١٦؛ عبد العزيز بن عبد الله: الوقف، ص ١٥٠؛ حسن

حسن عبد الوهاب: ورقات، ج ٢، ص ٥٠. الهادي العامري: المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٢) الغبريني (أبو العباس أحمد بن محمد الغبريني): عنوان الدرية فيمن عرف من علماء في

المائة السابعة ببجاية، ت: رابح دينار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ١٠٦.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٥-٤٦.

(٤). برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٨٩.

(٥) برنشفيك: المرجع السابق ص

(٥) الونشريسي: المعيار، ج ٢، ص ٣٨٩

(٦) ابن القنفذ: الفارسية، ص

وعندما ضعفت الدولة في أطوار الانحلال والتدهور وسيطرة الوزراء عليا البلاد و السلطة و النفوذ وكان دافعهم الأساسي هو السيطرة على الأموال والثراء مما عرض المؤسسات الصحية والأطباء الى الإهمال، وتعرضت الأحباس الى التدهور والانهيار والتدمير بسبب الصراعات السياسية والحروب المستمرة لوزراء الدولة ومنافسيهم بل اتجه الوزراء الحفصيون المستبدون والملوك الضعاف الى التسلف من أموال الأحباس من أجل الانفاق على حروبهم ومشاكلهم^(١) واستمر الوزراء المستبدون والسلاطين الضعاف في الاستيلاء على جباية الأحباس بسبب ما وصلت اليه الدولة من فقر وظلم و حياة يائسة^(٢) مما جعل الناس يعبرون عن غضبهم تجاه السلطة الحفصية وتجراًوا على الأحباس واعتدوا عليها واستولوا على ما فيها؛ مما أصابها بالخراب والدمار^(٣) كما فرط ناظر الأحباس نفسه في الحبس، وكذلك مساعدوه لم يختلفوا عنه^(٤) مما أصابها بالتدهور والفساد والانحطاط^(٥) وأثر

(١) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص ٢٩٨-٢٩٩؛ كمال ابو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب الإسلامي، ص ٣٣، هدى ع ١ مرى: المرجع السابق، ص ١٧٨.

(٢) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص ١٨٥.

(٣) البرزلي: فتاوى: ج٥، ص ٣٤٣؛ الونشريسي: المعيار، ج٧، ص ١٥١.

(٤) كثيراً ما قام المحبسون على جهات معينة، بوضع شروط محكمة من أجل حماية أحباسهم من الانهيار والتسلط والاستيلاء عليها من قبل الوزراء المستبدين في فترات نفوذ الوزراء وضعف السلاطين، راجع: الونشريسي: المعيار: ج٧، ص ٤٣، ٤٤؛ رشا سالم: المرجع السابق، ص ٣٢٣.

(٥) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص ٣٣٥، محمد حسن، المدينة والبادية: ج١، ص ٣٦٤؛ الونشريسي: المعيار، ج٧، ص ١١٣، ٢٧٥، ٢٩٤، كمال ابو مصطفى: الأحباس والأندلس: ص ٥٦-٥٧، حسين سيد عبد الله مراد: الأوقات مصدراً لدراسة لمجتمع فاس في العصر

على الحياة الصحية للمرضى والمجذومين والفقراء.

الأحباس على المساجد

كانت الأحباس العقارية على المساجد كبيرة جداً في الدولة الحفصية، من أجل تغطية مصاريف هذه المساجد والموظفين وأجرتهم ووقودهم، فإلى جانب تبرع الخواص بالعقارات لفائدة هذه المنشآت، فإن السلاطين الأقوياء والوزراء الحفصيين أكثروا من هذه الأحباس من أجل أهداف سياسية واجتماعية وكذلك بالنسبة الى الأحباس المبهمة أو أحباس القرى اذا جهلت مصارفها، فكان صاحب الحبس الكبير بتونس يتولى جمعها وصرفها على صيانة المساجد وترميمها^(١).

وفي عهد قوة الدولة والسلاطين العظماء تنوعت الأحباس وتخصصت على جانب معين من أمور المسجد، فهناك أحباس معينة لبناء المساجد، وأحباس لفرش المساجد، أحباس للشمع الذي يستخدم في اضاءة المساجد من أجل الدروس الدينية وغيرها^(٢) واستمرت الأحباس على المساجد في فترات القوة والازدهار على جميع مساجد الدولة دون الاقتصار على مسجد بعينه مما انعكس بالايجاب على مساجد الدولة الحفصية^(٣).

المريني، الزهراء، كمييو سنتر للنشر، ٢٠٠٢، ص ٧٠.

(١) الوثنريسي: المعيار: ج٧، ص ٣٣٥، محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص ٣٦٤، إبراهيم العبيدي التوزي: تاريخ التربية يتمونس، الشركة التونسية للتوزيع، (د.ت)، ج١، ص ١٣٤-١٣٥.

(٢) الوثنريسي: المعيار: ج٧، ص ١٨٤، رشا سالم: المرجع السابق، ص ٣١٥

(٣) الوثنريسي: المعيار: ج٧، ص ١٨٤-١٨٥.

مما ترتب على ذلك ارتفاع مداخيل وموارد بعض المساجد الكبيرة أكثر من مصاريفها، فكان جامع الزيتونة مثالا لذلك، حيث تعددت الأحباس العقارية الموقوفة عليه، فكان يخصص جزء من هذه الموارد لأجرة الموظفين وتوفير متطلبات المسجد من جميع المرافق الخاصة به^(١) حيث تعرضت النوازل للحديث عن شرعية المسالفة بين المساجد، وذلك عن طريق التسلف من المسجد الذي ليس في حاجة لأي اصلاحات أو ترميمات من أجل اصلاح مسجد زرّ آخر أو ترميمه في حالة وجود فائض به^(٢) وقام السلاطين العظماء وزرّاءهم بانشاء المساجد وجعل الأحباس عليها مثل جامع القصبة في تونس في عهد السلطان ابي زكرياء الحفصي^(٣) ومسجد الزيتونة حيث وسع الأحباس على هذا المسجد والعاملين عليه السلطان الحفصي أبو زكرياء أحمد و وزرّاءه^(٤) ومن ثم اهتم وزراء السلاطين الأقوياء بإقامة الأحباس على المساجد، فكثر تلك الأحباس على الأئمة والمؤذنين والقومة بالمساجد^(٥).

على العكس من فترات نفوذ الوزراء حيث ازدادت الفتن والحروب الداخلية والخارجية، فتعرضت هذه الأحباس للتخريب وأحيانا أخرى

(١) البرزلي: فتاوى، ج٥، ص ٣٩٠-٣٩١؛ الونشريسي: المعيار: ج٧، ص ١٨٤.

(٢) الونشريسي: المعيار: ج٧، ص ٤٤-٤٥.

(٣) العمري: وصف أفريقيا، ص ٢٢٧، محمد عبد الرحيم غنيم: الجامعات الاسلامية، ص ٢٤-٢٥.

(٤) الزركشي: لمصدر السابق: ص ٥١، العمري: وصف أفريقيا، ص ٢٥، التنجاني: الرحلة، ص ٢٧٤-٢٧٥، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٠٦.

(٥) كمال ابو مصطفى، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي، ص ٢٨؛ رشاش: المرجع السابق، ص ٣١٥-٣١٦.

كانت تُدمر ما أُقفت عليه هذه الأحباس، كثيراً ما أشارت النوازل وذكرت خراب مساجد، وقرى بأكملها هجرة سكانها منها، فهل يجوز الأخذ من أحباس مسجد ليعتمر مسجد آخر، فظهرت نوازل تؤيد وتجوز نقل أحباس مسجد الى مسجد آخر من أجل عمارته^(١) وأثرت تلك الفتن والثورات والصراعات في فترات نفوذ الوزراء واطوار الضعف التي ألمت بالدولة الحفصية على تراجع غلات الأحباس بسلب على مرتبات الموظفين والعاملين، فيلجأ المتولي للحبس الى اجراءات تقشفية عدة، مثل الاستغناء عن بعض الموظفين والعاملين أو التنقيص من أجورهم كتحديد عدد القناديل والشموع بالمساجد^(٢) وتهدمت أيضاً المساجد وخربت في فترات نفوذ الوزراء وضعف السلطان، ولم يبق منها سوى الأعمدة^(٣).

وتركت أراضي أحبست على المساجد وهجرت لسنوات طويلة دون زرع أو غرس مما أثر على المساجد بسبب نقص العائد عليها من تلك الأحباس قبل أن تجذب وتهجر هذه الأراضي^(٤) فأهملت تلك المساجد أيضاً بسبب الاستيلاء على الأراضي المحبسة عليها وتحويلها الى ملكية خاصة لحساب الأفراد والانتفاع بها دون المساجد أو غيرها^(٥) وعندما بدأت الدولة الحفصية

(١) الونشريسي: المعيار: ج٧، ص٦٢؛ برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص١٩٦، البرزلي:

فتاوى: ج٥، ص٣٩٢، محمد الهادي العامري: المرجع السابق، ص١٧٨.

(٢) الونشريسي: المعيار: ج٧، ص١٣٨؛ البرزلي: فتاوى: ج٥، ص٤٠٥.

(٣) البرزلي: فتاوى، ج٥، ص٤٠٥.

(٤) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص١٣٨.

(٥) المصدر السابق، ج٧، ص١٢٨، البرزلي، فتاوى، ج٥، ص٤٠٥.

في أطوار الانحلال والانهيار الأخير وبعيدا عن فترات السلاطين العظماء حل بالبلاد الخراب والدمار، تخربت الأحباس في البحر المتلاطم من تلك الفتن والثورات والصراعات على الحكم مما جعل السلاطين الضعاف ووزراؤهم من يقترضون الأموال الضخمة من احباس المساجد الكبيرة مثل جامع الزيتونة وجامع القضية الكبيرة دون رد هؤلاء السلاطين هذه الأموال الى المساجد، مما انعكس بالسلب على عمارة المساجد^(١) التي لاقت إهمال كبير على أيدي الوزراء المستبدين والسلاطين الضعاف^(٢).

الأحباس على المدارس ودور العلم:

نالت الأحباس مكانة اساسية بالنسبة لمؤسسات التعليم عامة، لأنها كانت تدعم نظامها، وتقيم أركانها، وتمكنها من ادارة رسالتها من حيث أن مواردها كانت المصدر الأساسي لتغطية نفقات المدرسة وبالتالي كانت ضمانا لاستمرار النشاط المنوط بها، وغيرها من المؤسسات التعليمية^(٣).

كان للسلاطين الأقوياء ووزراؤهم دور حيوي في التعليم في العهد الحفصي، ويعود الفضل لهما في الحركة التمدينية والنهضة العلمية الظاهرة^(٤)

(١) البرزلي: فتاوى، ج٥، ص ٤٠٧، ٤٠٦ وهنا نجد أن السلاطين الضعاف ووزراؤهم قد قاموا بهدم بعض المساجد من أجل الاستيلاء على أحباسهم. راجع البرزلي: فتاوى، ج٥، ص ٤٠٦.

(٢) رشا سالم: المرجع السابق، ص ٣١٧.

(٣) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة، ط ١، ١٩٨٠، ص ٢٤٠.

(٤) حسن حسني عبد الوهاب، شهيرات التونسيات، مكتبة المنار، تونس، ١٩٦٦، ص ٩٩، محمد ماهر حمادة: المكتبات في الاسلام ص ٨٦، النيجاني: الرحلة، ص ٢٢.

حيث أصبحت تونس محطاً لرحال تجار المشرق ومهاجري الأندلس وفيهم الطبيب والفقيه والمهندس والأديب وغير هؤلاء من أرباب الصنائع وأصحاب الحرف فتدفق عمران تونس وعُززت حضارتها وراجت بها سوق العلم والأدب بسبب التعليم ومنشأته التي حرص عليها السلاطين الأقوياء ووزراؤهم^(١)

وتميزت الأحباس على المدارس بالكثرة لتوافر العديد من المرافق بها، حيث أمر السلطان أبو زكرياء الحفصي وزراه ببناء مدرسة الشماعين وأقام عليها احباس كثيرة من أجل رعايتها والانفاق عليها^(٢) وكذلك فعل السلطان أبو جفص عمر و وزراؤه عندما أمرهم بهدم فندق كان يشتهر بالمجون والفساد وبنى مدرسة المعرض، وحبس عليها ريعاً كثيرة اشتراه بماله وكتب نفيسة في جميع فنون العلم، واعطى المدرس الشريف أبا العباس أحمد الغرناطي قرطاسين من ذهب وفضة، وطلب منه يفرقها على كل من يأتي للمدرسة، وعندما سمع الناس بذلك أتوا إليها من كل صوب، وحبس على المدرسة رزقاً كبيراً^(٣)

(١) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٦، ٣٧؛ حسن حسني عبد الوهاب: شهيرات، ص ٩٨، عاشور بوشامة: المرجع السابق، ص ٤٣٠؛ الوزران: وصف أفريقيا، ص ٤٢٣، ٤٢٢، ٤٢٥

(٢) الزركشي: المصدر السابق: ص ٢٦، ١٣٦، الونشريسي: المعيار، ج ٨، ص ١٦٢، القلصادي: رحلة القلصادي، ص ١١٥، ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص ١٥٧

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص ٥١، الترجمان: المصدر السابق، ص ١٣، ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص ١٨٦.

وكانت لهذه الأحباس على المدارس ودور العلم اثرها البالغ في ازدهار العملية التعليمية، لذا اهتم الوزراء وسلاطينهم بها؛ وحسبوا على المكتبات والكتب الثمينة^(١)، حتى زخرت بها خزانة جامع الزيتونة في عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز و وزراءؤه، حيث حسبوا على الكتب في العلوم الشرعية والعربية للغة والطب والحساب والتاريخ والأدبيات مما أدى الى انتعاش عملية الترغيب في التعليم^(٢) واستمرت الأحباس في عهد قوة الدولة على المدارس والمكتبات، حيث أمر السلطان ابو عمرو عثمان بإنشاء مدرسة والتحبس عليها وجعل موارد احباسها تفيض عليها ويكفيها من ناحية الإصلاحات والكتب ومرتببات وترميمات^(٣)

كما حبس أحباسًا كثيرة على خزانة الكتب بالمقصورة الشرقية من الجامع الأعظم مشتملة على جميع أمهات الكتب^(٤) وحبس على ثلاثة كتاتيب لقراءة القرآن، وكذلك أجرى أحباسا كافية على مدرسة بسوق القلعة، وجعل للطلبة المقيمين بها أحباسًا تجري عليهم، وحبس على المدرسين بالمدارس من اجل التفرغ للعلم والدراسة وعدم اهمال الدراسة من اجل السعي وراء العيش فقط^(٥) حيث وفرت بالمدارس حجرات الاقامة والدراسة مع المكتبة^(٦).

(١) محمد ماهر حمادة: المرجع السابق، ص ٨٦، منى سيد: المرجع السابق، ص ٢٨٦-٢٨٧

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص ١١٦.

(٣) ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٧٨؛ الأنصاري: فهرست الرصاع، ص ١٤٠ هامش.

(٤) ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٧٨-١٧٩، الزركشي: المصدر السابق، ص ١٢٥، ١٤٤، البرزلي: فتاوى، ج٥، ص ٤١٩.

(٥) ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٧٨.

(٦) بو شامة: المرجع السابق، ص ٤٤١.

وفي فترات السلاطين الأقوياء ووزرائهم وفر المسكن للطلاب وكانت تقدم لهم مبالغ مالية شهرية من أجل المصاريف الشخصية والتعليم والملبس وكانت المدارس في قوة الدولة تقدم سنويا كسوة للطلاب مجانا، وكان الطلاب يأخذون رواتبهم مثل الأساتذة والموظفين بالمدرسة من موارد المدرسة من الأعباس، ويبدو أن أقصى مدة تكفل المدرسة الطالب خلالها سبع سنوات^(١).

وكانت الأولوية للطلبة الغرباء عن المدينة أو من خارج الدولة الحفصية للسكن داخل المدرسة^(٢) وكان ناظر المدرسة أيضا يتلقى مرتبه من موارد المدرسة من الأعباس، ولم يكن راتبه ثابت بل كان حسب زيادة أو نقصان موارد المدرسة من الأعباس والهبات المالية الأخرى التي تتلقاها^(٣) ويشرف على تلك الأعباس والهبات ناظر لإدارتها ويساعده عمال يقومون بالإشراف على استغلالها، واستخلاص مواردها، ويتوقف عددهم على حجم تلك الأعباس^(٤) وكانت مرتبات الأساتذة مثل منح الطلبة تتراوح بين الثبات والزيادة والنقصان حسب إيراد أعباس المدرسة^(٥).

وعلى العكس من فترات قوة السلاطين، كانت فترات ضعفهم واستبداد الوزراء والصراع على الحكم والحروب والفتن فآثر على الأملاك والبساتين المحبسة على المدارس فتدمرت تلك الأعباس التي كانت تنفق منها على

(١) الوثنريسي: المعيار، ج٧، ص ٣٤٧، ٣٦٣، ٣٨٣.

(٢) الوثنريسي: المعيار، ج٧، ص ٢٦٤، ابن القاضي: درة الحجال، ج٧، ص ٨٠-٨١.

(٣) الوثنريسي: المعيار، ج٧، ص ١٢٣، ٢٦٧، البرزلي: فتاوى، ج٥، ص ٤١٩.

(٤) الوثنريسي: المعيار، ج٧، ص ٩٩، ١٣٤، ١٤٠.

(٥) المصدر السابق: ج٧، ص ٣٤٧، ٣٦٣-٣٨٣.

مرتبات الأساتذة، ونفقات الطلبة والفقراء، ولم يبق للطلاب سوى السكن، ولم يبق له أيضًا سوى دخل بسيط، مما أدى إلى تقلص الحركة العلمية في الدولة الحفصية، ولم يعد يقيم بهذه المدارس سوى بعض التلاميذ الغرباء^(١) ونتيجة لقلّة العائد من الأحباس في تلك الفترات الصعبة، ضاق خراج المدارس، ولم يعد يفي بحاجات المدرسة والطلبة القائمين عليها، فلم يجدوا قومه يقومون عليها^(٢) مما أدى إلى كسر مرتب المدرس أو الطالب^(٣) وانعكس ذلك سلباً على عملية التعليم والقائمين عليها^(٤).

فهنا تبين واضح من الأحباس على المدارس أبان أطوار الدولة الحفصية من حيث القوة والازدهار والضعف والانحلال بحيث نجد السلطان أبو زكرياء اللحياني ووزرائه قاموا بجمع الكتب والزخائر الموجودة في خزانة المكتبة بالقصبة، وقاموا ببيعها مقابل قناطير من الذهب، وهرب بصحبة ووزرائه إلى طرابلس ومن هناك غادر إلى الإسكندرية^(٥) وهذا يدل على مدى الانهيار السياسي والاقتصادي والاجتماعي للدولة الحفصية فانعكس على الحياة التعليمية والعلماء والطلاب، مما أصاب المدارس بالخراب والدمار، واستولى أهل الأحباس على مواردها بعد أن خربت المدارس، وأحياناً نقلوا

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص ١٣٦؛ حيث يقوم السلطان القوي بأمر وزرائه ببناء ما تهدم من جراء الحروب، وتكرار تلك العمليات خلال الحكم الحفصي ما بين القوة والازدهار والضعف والانحلال

(٢) الوثريسي: المعيار، ج ٧، ص ١٧-١٨.

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٤٢، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٣٦٦.

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٣٦٦.

(٥) الزركشي: المصدر السابق، ص ٦٣.

أحباس هذه المدارس المهجورة إلى منافع أخرى^(١).

الأحباس على الزوايا:

انتشرت الزوايا في العديد من نواحي بلاد المغرب والأندلس، وكانت دور للعلم والاقامة، وكان ينشأها أهل الخير ورجال الطرق الصوفية والسلاطين والوزراء من أموالهم الخاصة أو يشترك جماعة في انشائها، ويحبسون عليها أحباسا كثيرة من أجل تغطية نفقاتها، وتوكل إدارتها ورعايتها إلى ناظر وجماعة من المساعدين، ويحدد المحبسون في عقود الأوجه التي تصرف فيها عوائد الأحباس وطريقة إدارتها^(٢) واهتم السلاطين الحفصيون ووزراؤهم أكثر من غيرهم في بلاد المغرب والأندلس بالأسهام في إقامة الزوايا والعناية برجالها، حيث أمر السلطان أبو عمرو عثمان الحفصي وزرائه بالحبس على زوايا بعين الزيب (تقع بين باجة وتونس)، فكانت الأحباس عليها وافية وكافية للانفاق عليها وعلى المقيمين بها والوافدين عليها^(٣).

كما قام السلطان أبو فارس عبد العزيز ووزراؤه بالتحبيس على زاوية باب البحر بتونس بعد أن أمر وزرائه ببنائها، وزاد في أحباسها من أجل الانفاق عليها^(٤) وحبس أيضًا هذا السلطان العظيم ووزرائه على زاوية الفندق بغابة شريك بين تونس والقيروان، وجعلت أحباسها للانفاق عليها وعلى العاملين

(١) البرزلي: فتاوى، ج٥، ص ٣٨٤.

(٢) محمد حسن: المدينة والبادية، ج٢، ص ٣٦، عاشور بو شامة: المرجع السابق، ص ٤٢٥.

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص ١٣٦، ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٧٨.

(٤) الزركشي: المصدر السابق، ص ١٦٦، أبو عبد الله محمد الأنصاري: فهرست الرصاع، تحقيق

محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٧، ص ١٤١-١٤٢.

بها^(١) وجعلها ملجأ لمبيت الواردين الى الحضرة من تونس أو من ناحية القيروان^(٢) وتعددت الزوايا وأحباس عليها في عهد السلاطين العظماء وقوة الدولة حيث انتعشت بها الحياة العلمية لما تحتويه من مكتبات ثرية بالكتب الدينية ومناقب الصالحين، ورجال الصوفية، غير ان طبيعة التعليم بها لم تكن تستدعي وجود كتب لكل فروع العلوم العقلية واشتهرت الزوايا بأتجاهاتها وهذا بسبب تأييد السلاطين الحفصيين والوزراء لها من أجل التبرك من دعاء الأولياء لهم ولابنائهم، فيعتبر هذا التحبس خلا من الناحية الدينية عقياً من الناحية الاجتماعية مضراً من الوجه الأخلاقية وخاصة في عهد استبداد الوزراء وضعف السلاطين^(٣).

ومع انييار الدولة الحفصية وضعف السلاطين واستبداد الوزراء سيطر الصوفيون على الزوايا وأحباسها، وعلى الهبات التي كانت ترد على الزوايا، ولكنها استطاعت ايواء الناس ومساعدتهم في أوقات الأزمات والمجاعات^(٤).

الأحباس على الأضرحة:

اهتم السلاطين الحفصيون ووزراؤهم بالتحسيس على الأضرحة، حيث

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص ١٤٤، نليل سلامة العامري: الولاية والمجتمع مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لأفريقية في العهد الحفصي، منشورات كلية الآداب، تونس، ص ٢٤٦.

(٢) نليل سلامة: مدينة تونس، ص ٨٤.

(٣) محمد الهادي العامري: المرجع السابق، ص ١٧٨. الزركشي: المصدر السابق، ص ١٤٤، نليل سلامة العامري: المرجع السابق، ص ٢٤٦.

(٤) نليل سلامة: المرجع السابق: ص ٦٠-٦١، ٢٥٤-٢٥٥؛ محمد حسن المدينة والبادية ج ٢، ص ٦٢٨-٦٢٩.

كانت أحباس الأضرحة تحترم لحرمتها، وكانت هذه الأراضي تحبس للموتى، ولا يتعدى أحدا عليها، ولا تهدم^(١) ولكن على العكس في فترات نفوذ الوزراء حيث استباحوا الأموال ثم حبسوا على المقابر، ولكنها اعتبرت أحباس باطلة ونظر الفقهاء الى أولئك الوزراء المستبدين والسلاطين الضعفاء على أنهم مستغرقوا الذمة^(٢) حتى أن أحد الشرفاء دفن خطأ في إحدى المقابر التي كانت لجاره، فحكم الفقهاء على أن يبق الميت بالقبر ويأخذ الجيران ثمن القبر، لأن المقابر حبس لجميع الناس^(٣).

وهنا وقف الفقهاء ضد الوزراء المفسدين والسلاطين الضعاف وأحباسهم على الأضرحة أو على أولادهم وأقاربهم وذريتهم ذلك لعدم شرعيتها^(٤) وظهرت عملية البناء على القبور أو حولها في الأرض المباحة، مما ضيق على القبور والأضرحة وحرمه الفقهاء^(٥) ولكنهم أباحوا حبس السلطان من بيت مال المسلمين عن طريق شراء أراضي أو غيرها ويجعلها حبس على الأضرحة أو غيرها، ووقفوا موقفاً متشدداً من أحباس مستغرقى الذمة من سلاطين ووزراء في فترات وأطوار الضعف ونفوذ الوزراء لأنهم استحلوا أموال الناس لأنفسهم بالباطل دون وجه حق بالإضافة الى فساد أخلاقهم ومطامعهم^(٦).

(١) البرزلي: فتاوى، ج٥، ص ٣٨٦.

(٢) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص ٣٠٤-٣١٠؛ محمد حسن: المدينة والبادية، ج٢، ص ٣٥٦؛

رشا سالم: المرجع السابق، ص ٣١٩

(٣) البرزلي: فتاوى، ج٥، ص ٣٨٧.

(٤) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص ٢١١-٢١٣.

(٥) البرزلي: فتاوى، ج٥، ص ٣٨٨.

(٦) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص ٢٦٦.

الأحباس على الفقراء والمساكين:

لقد اهتمت السلطة والوزراء بالفقراء والمساكين، حيث اقترن وضع الفقراء الاجتماعي بالمدلول الصوفي لمفهوم الفقير، فكان الفقراء والمساكين لا يملكون موارد كافية لهم من أجل الاستقرار، ولم تتمكن من الاستقرار والاشتغال بالفلاحة^(١) فقام السلاطين الأقوياء وبمساعدة وزراؤهم بالتحسيس عليهم من أراضي الدولة^(٢) حيث كانت تأخذ واردات تلك الأحباس لشراء ثياب وأطعمة وكسوة لهم في الأعياد الدينية^(٣) وأطلقت على أراضي الفقراء والمساكين "أرض المساكين" وكانت تزرع هذه لأراضي وتوزع غلاتها على الفقراء والمساكين في المنطقة المحيطة به وذلك في عصر قوة الدولة^(٤) وظهر لقب مشيخة الفقراء في العهد الحفصي لكثرة الفقراء والمساكين والعاطلين عن العمل، فكان شيخ الفقراء هو المسئول عنهم من خلال إحدى الزوايا التي كانت تجمع كل هؤلاء الفقراء والمساكين^(٥).

وقام السلاطين الحفصيون ووزراؤهم في عهد قوة الدولة بالتحسيس عليهم والاعتناء بها عناية كبيرة حتى يستغنون عن التكفف والعاله، حيث حبس السلطان أبو زكرياء الأول عليهم واهتم بالفقراء والمساكين سواء

(١) محمد حسن: المدينة و البادية، ج٢، ص ٦٢٨.

(٢) رشا سالم: المرجع السابق، ص ٣١٩.

(٣) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص ٦٣، ٢٧٠، ٢٩٩-٣٠٠؛ كمال أبو مصطفى: جوانب من

حضارة المغرب الإسلامي، ص ٣١-٣٥.

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص ١٩٥.

(٥) ابن ناجي: المصدر السابق، ج٤، ص ٥٢-٥٣.

الموجودين في البلاد أو الزوايا^(١) ومثله فعل السلطان ابو فارس عبد العزيز الذي حبس على الفقراء والمحتاجين في البلاد^(٢) وكذلك أمد الزوايا بالتموين الكافي للفقراء والمساكين بها^(٣).

وفي فترات نفوذ الوزراء تدهورت أحوال الفقراء والمساكين بسبب انشغال الوزراء بجمع الأموال بشتى الطرق، فاهملوا شئون الفقراء والمساكين وعدم وجود ما يتعيشون به، وظلت الأراضي المحبسة عليهم مهملة جرداء، وهجرت بسبب الحروب والصراعات، فأجاز الفقهاء بيع أراضي المساكين والفقراء والانفاق عليهم بدلا من الجوع والفناء^(٤) الذي يهلكهم أثناء فترات المجاعات والأزمات التي تزامنت مع الوزراء المستبدين، حيث لا يوجد ما يستطيعون يعيشون عليه سوى بعض التمور أو فتات الخبز^(٥) فكان الجوع أشد لدرجة أنهم أخرجوا الأكفان من القبور^(٦) وهنا لا ننكر دور الأحباس في انتشار عدد كبير من الفقراء والمساكين من المجاعات والتشرد^(٧)، الذي ظهر بوضوح عندما استولى السلاطين الضعاف على أحباسهم^(٨).

(١) ابن دينار: المصدر، ص ١٥٧.

(٢) المصدر السابق: ص ١٧٥، الزركشي: المصدر السابق، ص ١١٧.

(٣) ابن ناجي: معالم الايمان، ج ٣، ص ٢٠٩؛ محمد حسن: المدينة ولبادية ج ٢، ص ٦٢٩، محمد الهادي العامري: المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٤) الونشريسي: المعيار، ج ٧، ص ٣٣٢.

(٥) ابن ناجي: المصدر السابق، ص ٢٠٩؛ محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦٣٠.

(٦) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦٣١.

(٧) الونشريسي: المعيار، ج ٧، ص ٣٨.

(٨) مارمول كريخال، أفريقيا، ج ٢، ص ١٤٧.

الأحباس على الأرامل والزوجات والذراري:

كان لأحباس السلاطين الحفصيين ووزرائهم دور هام في الحياة الاجتماعية وأزماتها في المغرب الإسلامي، وخاصة في العصر الحفصي في أطوار الدولة المزدهرة وقوة السلاطين ووزرائهم المنفذين لسياستهم اتجاه المجتمع، فحبسوا على الزوجات والأرامل والذراري من أجل تأمين حياة كريمة لهم، وكذلك للحفاظ على بعض الممتلكات من الاستيلاء عليها^(١) وعرفت أحباس الأرامل والذراري والزوجات بأوقاف الوصايا^(٢) وعندما سيطر الوزراء على السلطة الفعلية للبلاد في أطوار الضعف والانحلال، وسيطروا على موارد الدولة، ولجأ السلاطين الضعاف إلى الخلود والراحة والملذات^(٣) فخاف الأفراد على تلك الملكيات وعلى أقاربهم فقاموا بالتحجيس عليهم^(٤) وكثير ما حبس السلاطين على الأرامل والأيتام مثلما فعل السلطان أبو فارس عبد العزيز عندما أمر وزرائه بالتحجيس على الأرامل والأيتام وتصدق بأموال ضخمة عليهم^(٥).

وظهرت عملية التحجيس والوصية لإناث معينة كان يكتب اسماءهم في

(١) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص ١٨٨-١٨٩، كمال أبو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب والأندلس، ص ١٢٥-١٢٦، البرزلي: فتاوى، ج٥، ص ٣٣٠-٣٣١.

(٢) محمد المنوني: ورقات، ص ١٢٥؛ رشا سالم: المرجع السابق، ص ٣١٨.

(٣) ابن دينار: المؤنس، ص ١٦٤، ١٧٠.

(٤) البرزلي: فتاوى، ج٥، ص ٣٣٢؛ وتنوعت الأحباس على النسل والذرية، وهناك أحباس على البنين فقط وأخرى للإناث، وظهرت أحباس على أولاد كان عليهم اختلاف في النسب عن هذه القضايا. راجع البرزلي، فتاوى، ج٥، ص ٣٣٢-٣٣٥.

(٥) ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٧٧، الزركشي: المصدر السابق، ص ١١٦.

الوصية^(١) وأحياناً كان الورثة يتصدقون بكل ما يرثونه على واحد منهم نظراً لظروفه^(٢) وفي عهد فترات الوزراء ونفوذهم اشطّات عملية اغتصاب الرعية من قبل رجال الدولة ووزرائهم حتى أصبحوا مستغرقين ذمة، لذا صارت أحباسهم غير صحيحة وكانت وصيتهم على أموالهم باطلة^(٣).

وخلص القول:

نجد أن أحباس السلاطين والوزراء الحفصيين تنوعت في جميع المجالات سواء على المساجد والمدارس والزوايا والأربطة والأراميل والزراري وغيرها، وازدهرت هذه المؤسسات إبان فترات الازدهار وتأخرت وانهارت في فترات نفوذ الوزراء وسيطرتهم على السلطة وعلى أموال الناس وأموال الدولة لأن الوزراء المستبدّين كانت أيامهم معدودة في الحكم؛ حيث كانت تحيط بهم الفتن والصراعات والدسائس من جميع الجهات لذلك لم يكن لديهم وازع ديني؛ بل سيطروا على أموال لعامة وأصبحوا مستغرقين ذمة.

الوزراء والحسبة:

خضعت الأسواق الحفصية لنظام شديد من المراقبة والتنظيم ومقاومة الغش والفساد، ومنع التدليس والإشراف على عمليات البيع والشراء من جانب المحتسب^(٤) الذي يعتبر المنظم الحقيقي للحياة الاقتصادية عامة في

(١) الوثريسي: المعيار، ج٣، ص٣٧-٣٨، ج٧، ص٨، ٤٦، ٦٣.

(٢) المصدر السابق: ج٥، ص٣٧-٣٨.

(٣) المصدر السابق: ج٧، ص٢٩٤-٢٩٥.

(٤) إبراهيم القادري بوتشيش: المرجع السابق، ص١٠١، محمد عبد العزيز بن عبد الله: الوقف

في الفكر الاسلامي، ج١، ص٢٢٢-٢٢٥.

المدينة. وللحياة التجارية والصناعية على وجه الخصوص^(١) وكان السلطان يولي المحتسب ولايته، وكان مفوضاً في جميع شئون المدينة المعين بها، ويفصل في النزاعات بين أصحاب المهن^(٢) وكان السلاطين العظماء بمساعدة وزرائهم يشترطون لمن يتولى هذا المنصب ان يكون رجلاً عفيفاً خيراً عالماً لا يميل ولا يرتش^(٣) حتى يستطيع ترتيب صناعات كل مهنة حسب مكانها، ومنع اعاقا الحركة بالأسواق، والاشراف على الموازين والمكايل وتفتيش الأتعمة، ومراقبة الأسعار، ومنع الاحتكار^(٤) فكان دائماً السلاطين الأقوياء وزرائهم يسندون هذا المنصب الى أهم الشخصيات القضائية من اجل الرقابة الشديدة للمكايل والموازين، فكان دائماً يصدر الأحكام ضد المخالفين مباشرة وتصبح نافذة بمجرد صدورها^(٥).

(١) زيزي محمد عبد الرحمن: السواق الأندلسية في عصر الخلافة الأموية حتى سقوط الموحدين، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب الزقاق، ٢٠٠٣، ص ٨٤، مريم جبودة: المرجع السابق، ص ١٨٤.

(٢) الشيزري: نهاية الرتبة، ص ٦، محمد المنوني: خطة الحسبة، ص ٢١٠.

(٣) ابن عبدون: رسالة ابن عبدون، ص ٢٠٠.

(٤) ابن خلدون: المقدمة؛ ج ١، ص ٢٠١، كان المحتسب قويا صارما مع الحرفين والصناع لذلك كانت أيديهم مغلوطة ليس بها فساد وزيف وخاصة في القرنين الخامس والسادس الهجري. راجع محمود اسماعيل: الاقطاع في العالم الاسلامي (من منتصف القرن الخامس على أوائل القرن العاشر الهجري) بين الجدول النظري والواقع التاريخي، حويلات كلية الآداب، الحولية الحادية عشرة، الرسالة التاسعة والستون، جامعة الكويت، ١٩٨٩/١٩٩٠، ص ٧.

(٥) ابن يوسف الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ١٣٧-١٣٨، الونشريسي: المعيار، ج ٥، ص ٨٨-٨٩، مارمول كارينخال: أفريقيا، ج ٢، ص ٥٠.

وظل المحتسب يؤدي دوره بكل قوة وصرامة في عهد السلاطين الأقوياء ووزرائهم، لأنهم أعطوا ولاية الحسبة اهتماما كبيرا لأنه بقوة المحتسب وعدله يأمن الناس ويشعرون بالأمان، وكان المحتسب في مراقبة مستمرة من قبل قاضي القضاة^(١) وكان لمحتسب تونس في العهد الحفصي مهام اقتصادية كبيرة أهمها الأسواق^(٢) بجانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٣) فكان هو الشخص الذي يحل الربط بين الشرعية الإسلامية والنشاط الاقتصادي ويتضح هذا الربط بوضوح من تصميم المدينة نفسها، اذ يجاور فيها المسجد الأعظم والحي التجاري والأسواق مثلها مثل باقي مدن المغرب الكبرى وكان المحتسب يختار عريفاً أو أميناً لكل صنعة، من بين أفرادها، يشرف على أحوال طائفة ويطلع على أخبارهم وحيلهم، حتى يتسنى له مراقبتهم^(٤) كما جعل المحتسب لكل سوق أمن للتسعيعة، وسمسار للتوسط بين البائع والمشتري، كما كان في كل مكان عريف ونائب عريف وصناع، وكان العريف هو المسئول عنهم جميع تحت الإشراف الأعلى للأمين^(٥) وكان على الأمناء مراقبة الموازين والمكايل^(٦) منعاً للغش والتلاعب، ولذا فقد كان يطبع على جوانبها "طبع

(١) محمد سويسى: أنماط العمران البشرى؛ ص ٩٢.

(٢) جوليان: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٩٣.

(٣) محمد سويسى: أنماط العمران، ص ٩٢، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٥٢.

(٤) الدباغ: معالم الايمان، ج ٣، ص ١٢١، ١٦١.

(٥) عثمان الكعاك: الحضارة العربية، ص ٩٣.

(٦) اختلفت تقديرات وحدات الموازين والمكايل من مدينة لأخرى ومن دولة الى أخرى في بلاد المغرب والأندلس، كما كانت تلك التقديرات تتغير أحياناً مع تغير الحكام في الدولة الواحدة، وكانت متنوعة منها القنطار يساوي ٥٠,٤ كجم أو ١٦٠٠ أوقية في تونس، والرطل

موصل "بأعلاها حتى لا يزيد حجمها، وكان يأمر بمسحها في كل وقت وعند كل وزن حتى لا تتسخ ويثقل وزنها، ونصبح أداة للغش وتزييف للمكاييل.

ولكن انعكس الوضع تمامًا في فترات ضعف الدولة وسيطرة الوزراء حيث تدهورت ولاية الحسبة بشكل ملحوظ، وأصبح يتولاها كل من يطلبها مهما كان وضعه وعلمه فتقلدها سفلة القوم ومن لا يعرفون عن العلم شيئاً، فنرى المحبس جامداً وفاسقاً، حيث أى العشاء السياسي للسلطين والوزراء فانعكس ذلك على مشاد العلماء والفقهاء المولين للسلطة وسعد أصحاب تلك المناصب الى جمع الأموال وتكوين الثروات^(١) وظهرت المشكلات التي ظهرت في المجتمع الحفصي نتيجة لتدهور الأوضاع وفساد المحتسب

منه ثلاثة أنواع في الدولة الواحدة، الرطل العطارى ويساوي ١٦ أوقية والسوقي يساوي ١٨ أوقية، والشرعي يساوي ١٢ أوقية أو ١٢٨ درهماً من الكيل والأوقية تساوي ٢١ درهماً من دراهم الكيل يساوي ٥٠ حبة و ٥٤! حبة، وهي حبة شعير غير مقشرة، والرائق يساوي ٨,٤ حبة، والقيراط يساوي ٣ حبات، والحبة لربعة أرزات، والأرزة أربعة سمسات، والسمة ٤ خردلات، والخردلة ٤ ورقات نحل، وورقة النحل أربع ذرات، والذرة $\frac{1}{1024}$ من حبة الشعير، وكان القفيز في القيروان كان يساوي ١٨٧ لتراً أو ١٦ روية، ستي كان يسمى في تونس ١٧٥,٩٢ لتراً أو ١٥ ربية، وتنقسم الروبية الى ١٢ صاعاً، والصاع يساوي ١٢ مداً والمداخره الرسول(ص)، والمد النبوي يزن ٤٠٠ جرام من الشعير، ٥٢٥ من القمح. راجع: ابن يوسف الحكيم: الدوحة المستيكة، ص ١٣٧-١٣٨، ٩٧-٩٩، ١٠٤، ١٤٦-١٤٧؛ العمري وصف أفريقيا، ص ٤، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ١١٤، نجاة باشا: المرجع السابق، ص ٨٩.

(١) الونشريسي: المعيار، ج ٢، ص ٤٩١-٤٩٢، محمد المنوني: خطة الحسية في المغرب، ص ٢١٩، رشا سالم: المرجع السابق، ص ٣٢٥.

ومعاونيه حيث وجدت الميازيب التي تجري بالنجاسة والغسالة الى الأماكن التي يمر بها الناس مما تعزز تحرك الناس، بل كانوا أحياناً يمرون بجوار الدواب التي تلوث وتنجس ثيابهم بروث وبول الحيوانات واستمر المحتسب غائب عن المشكلات الحفصية، فبدأ الناس يؤذون بعضهم البعض كتضييقهم في الشوارع بتكديس المرحضات المستخرجة من سروب المحلة ووضع كومات منها وتركها في الأماكن الضيقة، فيقع بها الصبيان، ويتنجس المارة منها وكثرت الشكاوي^(١) ولكن السلطة الحفصية كانت في حالة انهيار وتدهور تام ولا وعي للسلطان الذي حجب نفسه عن الناس من أجل ملذاته ولهوة^(٢) وانعدم منصب المحتسب تماماً في أطوار الانهيار، وحدث ذلك عام ٧٤٩ هـ . ١٣٤٨ م، حيث انعكست الحالة السياسية المتردية للبلاد، وحدث غلاء شديد لأسعار السلع داخل الأسواق التي لم تجد رقياً ولا حسيباً، ووصل سعر دقيق القمح ثمانية دنانير من الذهب، وعانى الناس الكثير من جراء تلك الأزمة وإبان الوباء، واندثر السلطان الحفصي ووزراؤه ومعاونيه^(٣) على العكس من فترات السلاطين الأقوياء ووزرائهم، ودور المحتسب النشط حيث المراقبة الصارمة على البائعين، فيعم الرخاء، ويقبض عن حاجة السكان، وتستقر الأسعار في الأسواق، فمتوسط سعر القفيز من القمح يساوي خمسين درهماً، والشعير أقل من ذلك، ورطل اللحم الضان بدرهم، وباقي أنواع اللحوم

(١) الوثنرسي: المعيار، ج٢، ص ٥٠٠.

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص ١٠٤، ابن دينار: المؤنس: ص ١٧٠، ١٦٤.

(٣) ابن دينار: المؤنس، ص ١٦٩، الزركشي: المصدر السابق، ص.

الأخرى أقل في الثمن، وثمن الدجاجة درهمان^(١) حتى أبان حدوث المجاعات والأوبئة في فترات السلاطين الأقوياء ووزرائهم، حيث أمر السلطان أبو عمرو عثمان وزراؤه ومحتسبه عام ٨٦٢هـ / ١٤٥٨م باخراج من مخزون كل يوم ما يصنع من ألف خبزة، تصرف على فقراء تونس حتى ترخص وتقل الأسعار، وبالفعل كثر القمح ورخص ثمنه^(٢) بسبب مساعدة المحتسب وأعوانه للوزراء الحفصيين وسلطانهم.

وفي عهد نفوذ الوزراء وضعف السلاطين استمر غياب المحتسب ومعونه عن الأسواق بصورة واضحة فأصبحت الأسواق مكاناً يختلط فيه الرجال والنساء وسفلة السماسرة، وربما لأقام هؤلاء النسوة لمحادثة هؤلاء ومزاحهم، وهذا من المنكرات التي تدعو إلى ارتكاب المحارم، فكان على المحتسب أن يقدم أمناء ويختار ثقات السماسرة وشيوخهم يمنع من كان سئ التصرف، ويجعل النساء موضعاً مستتراً يخضعن للخلو في فضاء ما يحتجنا اليه اذا اضطررن لذلك بحيث لا يخالطن الرجال^(٣).

كما وجد يباعون يرفضون البيع لأناس بعينهم، كما شكى أولئك الناس إلى المحتسب بأن الجزار يمنعهم من شراء اللحم وجعلها لآخرين، فقام المحتسب بمعاقبة الجزار وأمره بخدمة جميع الناس ومنعهم بعدم الاساءة للمشتريين، وعدم تخصيص بضاعة لأحد^(٤) واستمرت التجاوزات من الناس

(١) العمري: وصف إفريقية، ص ٦، القلقشندي: صبح الاعشى، ص ١١٥.

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص ١٥٠.

(٣) الونشريسي: المعيار، ج ٢، ص ٥٠٠، رشا سالم: المرجع السابق، ص ٣٢٥، ٣٢٦.

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٥٢.

في الأسواق مع استمرار انهيار السلطة وضعفها وسيطرة الوزراء وغياب المحتسب، فانتشرت عملية تعذيب الحيوانات في الأسواق، حيث حمل الحطابون أحمال طائلة على الدواب، وضربهم ضرباً مبرحاً، وعذبوا الدواب وتركوها بأوساخها وطينها عليها دون ازالته أو غسله^(١) واشتدت الاساءة للحيوانات مع أمر الرسول (ﷺ) بعدم تعذيبهم، فهناك من يضرهم بشدة، وثقال الأحجار والحبس عليهم، فغاب المحتسب ومعاونيه عن حماية الحيوانات^(٢)

ومع غياب المحتسب عن أداء وظائفه الأساسية وتدهورت الأسواق وانتشرت بها المنكرات وعقود المعارضات، وظهر التعامل بالربا في الأثمان والمعاملات بصورة كبيرة بين الناس^(٣) وانتشرت العملات المزيفة والعمل بها في الأسواق بصورة علنية مثل الدنانير والدراهم المزيفة^(٤) فاذا وجدت هذه

(١) الشيزري: نهاية الرتبة، ص ١٤.

(٢) الونشريسي: المعيار، ج ٢، ص ٥٠١.

(٣) لقد حرم الله سبحانه وتعالى الربا لأن له أثارا خطيرة على المجتمع الذي ينتشر فيه، فله أضرار اقتصادية واجتماعية ونفسية، حيث يؤدي الى ارتفاع الأسعار وغيرها، ويقول سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران آية ١٣٠) وقال الرسول (ﷺ) (لعن الله أكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه) وعن أبي هريرة ؓ قال رسول الله (ﷺ) (الربا سبعون حوباً أيسرها أن ينكح الرجل أمه) صحيح ابن ماجه ج ٨، ص ١٨٤، راجع الشعرائي: كشف الغمة عن جميع الأمة، ج ٢، ص ١٠، البرزلي: فتاوى، ج ٣، ص ١٤-١٦

(٤) البرزلي: فتاوى، ج ٣، ص ١٥٣ حيث انتشرت عمليات العملات المزيفة في فترات سيطرة الوزراء وانحلال الدولة فظهر درهم ردئ وأخرى مزيفة في الأسواق الحفصية، فجعل الفقهاء يحرمون استعمال هذه العملات المزيفة راجع البرزلي: الفتاوى، ج ٣، ص ١٥٤-١٥٥.

العملة المزيفة قوة وردعاً من المحتسب وسلطته، استطاع السيطرة عليها ومنعها من السوق، وهذا ما حدث عام ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م حيث كثرت غش دراهم نحاسية بشكل كبير في الدولة الحفصية، وجرى الناس على تداولها، فأمر الفقهاء باستمرار استخدامها حتى لا يؤدي الى اتلاف رؤوس أموالهم فاستمر ذلك شهر حتى جادت دراهم كثيرة نحاسية مطلية وشاعت في البلاد وزاد غشها بشكل كبير من الفسقة والمزيفين وتفاوتت درجة غشها، فوقف المحتسب والوزراء بشدة ضد هذه العملة ومنعوا التداول بها^(١).

وفي فترات انهيار سلطة السلطان وتحكم الوزراء وغياب المحتسب انتشرت عملية خلط السلع السليمة بالسلع الفاسدة في الأسواق من أجل الحصول على أرباح كبيرة مثل الفاكهة^(٢) وزهو النحل^(٣) وخلط الزيت القديم بالجديد^(٤) وكثرت عملية خلط حتى غش الصباغين الألوان وذلك بخلط الزعفران الجيد بالردئ دون رادع ولا رقيب^(٥) وكذلك انتشرت دور الدباغة داخل البلاد بعد ما كانت خارج الأسوار حتى لا يتأذى الناس بالرائحة الكريهة لمخلفاتها وتؤثر على صحتهم العامة وتنتشر بينهم الأمراض،

(١) المصدر السابق، ج٣، ص ١٥٥، ١٨١، ١٨٠.

(٢) البرزلي: فتاوى: ج٣، ص ١٧٨.

(٣) المصدر السابق، ج٣، ص ١٧٩.

(٤) المصدر السابق فتاوى: ج٣، ص ١٨٥-١٨٦.

(٥) الونشريسي: المعيار، ج٥، ص ٢١٧. لم تتوقف عملية غش الفواكه والتمر والصباغة فقط بل شملت الزيوت والخضروات والمرجان واللحوم والقمح وغيرها من السلع، راجع البرزلي: فتاوى: ج٣، ص ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧.

فانتشرت الروائح الكريهة لها وتأذى الناس منها^(١).

وكسدت الأسواق وفرض السلاطين الحفصيون الضعفاء ووزراؤهم المستبدون الضرائب على الأسواق والصناع والتجار وتعسفوا في جمع الضرائب، مما أثقل كاهل الصناع والباعة، فخربت الأسواق وأغلق الكثير من الدكاكين بها^(٢) في فترات الضعف والانهيار وسيطرة الوزراء.

واستمر الوزراء في السيطرة على السلاطين الحفصيين الضعفاء واستمر معهم غياب المحتسب فكثرت المخشون بالأسواق يتعاملون بالنقود الفاسدة^(٣) على العكس مما فعل المحتسب في عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز وزرائه الذين قاموا بنقل وطرد المخشثين من الأسواق والبلاد الى خارجها^(٤) وزادت البطالة والفساد في الأسواق ومعها كثر السحر والشعوذة ولجأ السحرة الى عمليات النهب والنصب والسلب طلباً للمال في حين انعكس ذلك على الحالة العامة للبلاد ويأس الناس من إعادة الإصلاح لأن الأمور كانت تشير الى الأسوء بسبب استمرار الحروب والصراعات الفتن في نهاية الدولة أي بعد عصر السلطان أبي عمرو عثمان، وان انتعشت الأموال في أوقات قليلة ولكنها لم تمنع من سقوط الدولة.

(١) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص ٤١١، ٤٤٦؛ البرزلي: فتاوى، ج٣، ص ٢٩٢-٢٩٣.

(٢) الوزان: وصف أفريقيًا، ص ٤٦٠.

(٣) المالقي: آداب الحسبة، ص ٨٤، رشا سالم: المرجع السابق، ص ٣٢٧.

(٤) الزركشي: المصدر السابق، ص ١١٧.

الوزراء والعامّة

اختلفت علاقة العامة بالوزراء على مر تاريخ الدولة الحفصية فكانت العلاقة بينهم شدًا وجذب فكانت قوة السلطان مؤثرة بدرجة كبيرة عن علاقة الوزراء بالعامّة فعندما يسيطر السلطان على أمور الدولة يصبح الوزراء تحت أوامره ينفذون ما يشاء على العكس من ضعف السلاطين وسيطرة الوزراء والتحكم في العامّة وخاصة في فترات المجاعات والكوارث الطبيعية حيث وصفت لنا المصادر صوراً مأسوية للعامّة في العهد الحفصي حيث نجد ارتفاعاً في الأسعار للحبوب ونقص الإنتاج الزراعي فبلغ قفيز القمح ٢٠ ديناراً ذهباً و ١٠ دنانير للشعير مما أصاب الناس من خوف ورعب شديد وصاروا يموتون في الأزمة والأسواق^(١) التي كانت تعتبر الملجأ إلى العامّة من أجل البحث عن الخبز في ظل غياب تام للسلطة والوزراء الحفصيين مما أعطى الفرصة لظهور الصوفيين الذين وقفوا بجوار أئمة العامّة المتهاكمين وامتصوا ردود أفعالهم في ظل غياب تام من السلطان الضعيف والوزير المسيطر على أمور الحكم فلا يشغله من يموت أو يجوع ولكن كان هدفه هو النجاة بنفسه وبسلطانه الذي يبقائه على العرش يكون هو صاحب الكلمة والسلطة^(٢) على العكس من ذلك فنجد أن السلطان القوي ووزرائه المنفذين لسياسته ويقومون بأوامره خير قيام فعندما حدثت مجاعة سنة ٨٦٢هـ / ١٤٥٧م في عهد السلطان أبي عمرو عثمان أمر سلاطين بني حفص الأقوياء وبلغ ارتفاع

(١) محمد حسن: المدينة والبادية، ج٢، ٦٧٥.

(٢) مناقب أبي حسن الشاذلي، طبقة حجرية، ص ٥، محمد حسن، المدينة والبادية، ج ٥،

الحبوب أقصاه حتى بلغ قفيز القمح أربعة دنانير ذهبًا والشعير نصف ذلك فشكى العامة قلة الطعام والغلاء الى السلطان أبي عمرو وعثمان فأمر السلطان وزرائه بإخراج ما يصنع ألف خبزة من المخزن تفرق على الفقراء بتونس بباب يتجمي، فبدأ بتفريقها في ثالث ربيع الثاني ودام الى رجب حتى كثر الطعام ورخصت الأسعار^(١). وفي عهد السلطان المستنصر بالله احتج العامة احتجاجًا شديدًا ضد السلطة الحفصية بسبب وجود عملة مزيفة من النحاس سميت بالهندوس على غرار العملة الفضية بالمشرق^(٢) ونادى العامة بمنعها والضرب على أيدي المفسدين والمزيفين لها^(٣) فقام السلطان ووزرائه بالضرب على أيدي المدلسين وأمر السلطان وزرائه بضرب درهم جديد عوضًا عن القديم المزيف عن طريق اليهود المتناولين لصرفها وصنعها^(٤).

وعندما شهدت البلاد التونسية نقصًا في الإنتاج الفلاحي^(٥) في عهد السلطان أبي اسحاق (٦٧٩ هـ - ٦٨١ هـ / ١٢٧٩ م) فاستفحلت ظاهرة الجوع وانتشرت في جميع البلاد^(٦) حتى أكل العامة القمح فريغًا في ربيع ٦٧٨ هـ م ١٢٧٩ م وماتت الماشية وانهارت المحاصيل^(٧) فكانت هذه الظروف مناسبة لظهور غضب العامة ضد السلطان ووزرائه محمد بن هلال وابن الجبر

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص ١٥٠.

(٢) ابن خلدون، القيرامي ج٦، جلد ١٣، ص ٦٥٨.

(٣) المصدر السابق: ج٦، ج١٣، ص ٦٨٩.

(٤) المصدر السابق: ج٦، ج١٣، ص ٦٥٨ / محمد حسن: المدينة والبادية، ج٢، ص ٦٧٦.

(٥) الزركشي: المصدر السابق، ص ٤٥، محمد حسن: المدينة والبادية ج٢، ص ٦٧٧.

(٦) ابن الشماخ: المصدر السابق، ص ١٣٦.

(٧) الزركشي: المصدر السابق، ص ٤٥.

بسبب إتباعه لسياسة الإسراف والتبذير وقت هذه الشدة بالاضافة الى قلت المجابي وكثرة الانفاق^(١) ومع تشدد الجبابة في جمع الضرائب^(٢) وسياسته لاجتماعية هو وزراؤه مع العامة وازدياد التوتر الاجتماعي بينهما^(٣) واستيلاءه على البلاد الغربية واستيلائهم على الأموال والمنازل والحريم^(٤).

وظهرت حركة الداعي ابن أبي عمارة في البلاد الحفصية، فبادر برفع الضرائب على الناس وأهمها ضريبة الإنزال^(٥) وعلى الفور أنضمت اليه جميع العامة الموجودة بالأسواق وساندته بشده من أجل تمكينه في الحكم^(٦) في نفس الوقت لم يستطع السلطان ابواسحاق من السيطرة على جيشه لمواجهة أبي عمارة لأن وزيره الأكبر ابن ياسين التحق بابن أبي عمارة وتبعه طبقات الجنود، وهنا فقد السلطان مساندة الخاصة من وزراؤه وجيش وعامة الذين قد سئموا حكمه، فهرب اتجاه بجاية^(٧) ثم دخل ابو عمارة العاصمة ومركز الحكم تونس محمولاً ومحاطاً بالعامة المزدحمين من حوله عند باب منارة في ٢٧ شوال ٦٨١ هـ وبويع البيعة الخاصة والبيعة العامة^(٨).

(١) ابن القنفذ: المصدر السابق، ص ١٣٦، ١٣٩.

(٢) ابن خلدون: العبر: مج ٦، ج ١٣، ص ٦٨٦، ابن الشيع: المصدر السابق ص ٧٧.

(٣) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦٧٩.

(٤) ابن القنفذ: المصدر السابق: ص ، الزركشي: المصدر السابق: ص ٤٣

(٥) ابن خلدون: الغير، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٩٢

(٦) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦٨٠

(٧) الزركشي: المصدر السابق؛ ص ٢٧، ابن خلدون: العبر، ج ٦، ج ١٢، ص ٦٩٢، ابن ابي دينار:

المصدر، ص ١٦١، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦٨٠.

(٨) الزركشي: المصدر السابق، ص ٤٧.

وخرج أبو فارس ابن السلطان الحفصي بجيشه من زكاية لملاقاة الداعي ابن أبي عماره في صفر ٦٨٢ هـ، ولكن كانت الهزيمة من نصيبه مما جعل عامة بجاية يتمردون على الحكم الحفصي وينضمون إلى الداعي أبي عماره، فقاموا بنشر الفوضى والاضطرابات بالمدينة، وتنكروا السلطة الأمير الحفصي، وحاوا الفقهاء احتواء هذه الأزمة ولكنهم فشلوا، ورفضوا الانصياع لكلام القاضي عبد المنعم بن عتيق الجزائري من أجل الانصياع إلى الحكم الحفصي، فاعترضوا عليه وهبوا على بيته فقتلوه، ثم قاموا بترحيله عن البلاد بحرًا، ونادوا بطاعة أبي عماره وقدموا عليهم محمد بن سرغين^(١) وقام العامة بملاحقة الأمير الحفصي أبي زكرياء عند هروبه وقتله، وأرسلوا برأسه إلى تونس وطيف بها على عصا في الأسواق أمام فرح شديد من العامة فولول النساء وضحك السفهاء^(٢)

وأعطى السلطان ابن أبي عماره سلطات للعامة تهدف إلى تحسين أوضاعهم داخل البلاد التونسية^(٣) مما أغضب فئات أخرى من المجتمع وخاصة البدو ووزرائه بسبب تنامي دور العامة وتهميشهم، وعندنا أحسن السلطان بتحيز وزارته ورجال دولته للعامة، واستخدام القسوة معهم، قام على الفور على الوزير الأكبر لدولته ابن ياسين وقتله واستصفى أمواله^(٤).

(١) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٩٤، ابن القنفذ: المصدر السابق: ص ١٤٣، الزركشي: المصدر السابق: ص ٤٩.

(٢) الزركشي: المصدر السابق: ص ٤٩.

(٣) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦٨٣.

(٤) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٩٥.

وكانت نهايته أيضًا ممتزجة بعلاقاته العامة، فعند هروبه من تونس أثناء دخول السلطان أبي حفص للعاصمة، تم القبض عليه في أحد بيوت العامة الحرفيين، يقع قرب الصفارئين عند باب السوق لرجل أندلسي يسمى أبو القاسم القرموني في ٢٣ ربيع الآخر ٦٨٣هـ^(١) وهناك قبض عليه وقتل^(٢).

وهنا نجد عندما يحسن السلطان للعامة، تنتعش أحوالهم، ومعه يحسن الوزراء اليهم، ويكون دائم الحسّن للوزراء الى عدم الاساءة اليهم ومراعاة شئونهم وفي حالة الاخلال بأوامره يكون مصيرهم القتل وتصفيه أموالهم، حيث كانت علاقة وزراؤه بالعامة سيئه جدًا، حيث اتبعوا الشدة والعنف معهم، على الرغم من أن السلطان ووزراؤه قاموا برفع الضرائب عنهم في بداية الأمر^(٣) ولكنهم سعوا الى الكسب وتكوين الثروات على حساب العامة حيث نجد ابن مكي وزير المالية لأبي عمارة يكون ثروات طائلة بسبب نفوذه وسيطرته على السلطان^(٤) ومع ضعف السلاطين وتلاشي سلطاتهم وسيطرة الوزراء عليهم مدى ظهور دور العامة وبشدة^(٥) وظهر هذا الدور السياسي الواضح عندما توفي السلطان أبو يحيى بن أبي بكر سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م،

(١) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٩٥-٦٩٦، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٤٥ ،

الزركشي: المصدر السابق، ص ١٥٠، ابن الشّام: المصدر السابق، ص ٨.

(٢) الزركشي: المصدر السابق ص ٤٧، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦٨٣.

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١١٩.

(٤) المرجع السابق: ج ٢، ص ١٠٧.

(٥) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦٨٣.

وتنازع أبناءه أبو العباس أحمد من ناحية ضد أبي حفص عمر من ناحية أخرى من أجل الاستيلاء على الحكم، فكان لأبي حفص علاقات ودية مع العامة، فساندته في هذا الصراع واستطاعت الوقوف إلى جواره عند اقتحامه للمدينة على أخيه أبي العباس أحمد. وتصدت معه لجيش أخيه بكل قوة، حيث قتل في هذا الصراع عدد كبير من العرب المصاحيين للأمير أبي العباس أحمد، ونتيجة لذلك استولى أبو حفص عمر على الحكم^(١).

وعندما استولى أبو عصيدة على السلطة بمساعدة قبائل الكعوب أصبحت هذه القبيلة، قبيلة مخزنية، فتحصلن على الاقطاعات والضرائب وازدادت قوتها، وبدأت في التوسع شمالاً إلى مشارق مدينة تونس فقاموا بالإضرار بمصالح الناس وحطموا الزروع واستولوا عليها^(٢) مما أثر على الفئات الشعبية الموجودة بالمدينة، فشاطت العامة لذلك التصرف ولا نجد من يمنعهم ويصدهم عن غرورهم، واستهزأهم بالسلطة الحفصية من سلطان و وزراء، فأدى ذلك إلى الغلاء الذي وقع على العامة^(٣) فكان رد فعلهم عنيفاً اتجه الأعراب فكانت الفرصة مواتية لهم عندما دخل هداج بن عبيد الكعبي بجامع الزيتون بخفيه في الخامس عشر لشهر رمضان عام (٧٠٥ هـ / ١٣١٢ م) بعد صلاة الجمعة، فزجره بعض الناس عند ذلك قال: (دخلت والله بهما على السلطان) فاستشاط العامة عليهم، وقاموا وقتلوه وجرو شلوه في طرق تونس مما دفع قبائل الكعوب بقيادة عثمان بن أبي دبوس للتحرك إلى

(١) ابن خلدون: العبر، حر، ج٦، ص١٢، ص٨٠٩-٨١٠، الزركشي: المصدر السابق، ص٨١.

(٢) ابن خلدون: العبر مج٦، ج١٢، ص٧١٥، الزركشي: المصدر السابق، ص٥٦.

(٣) راجع ابن خلدون: العبر، مج٦، ج١٢، ص٧٥-٧٦، الزركشي: المصدر السابق، ص٥٦.

تونس ومقاتلة العامة، تخرج معهم الوزير أبو عبد الله محمد بن يرزكين في العساكر وقتلهم حتى ردهم الى مواقعهم خارج المدينة^(١).

ولكن لم تركن قبائل الكعوب وترضخ للسلطة الحفصية بل استمروا في بثهم وعبثهم واضرارهم بالناس، وعلى الرغم من خروج الوزير ابن يرزكين مرة ثانية من اخضاعهم ولكنهم رفضوا واستمروا في عصيانهم، وتواطئ معهم الوزراء والحاجب وكان على رأس المساندين لهم ضد العامة الوزير الحاجب ابن الدباغ الذي لم يستطع مدافعتهم وهزيمتهم وتركهم يسقون العامة أشد أنواع الرعب والفرع، مما جعل العامة يتحركون اليه في القصبه، بعد أن ذهبت شكايتهم الكثير هباً، فقام ابن الدباغ بسد الباب في وجه العامة بعد أن سأت العلاقة بينهما، فقاموا بالقاء الحجارة في مقرة، وطالبوا بقتل ابن الدباغ لشفاء صدورهم، وتحرك هذا التجمع الصاخب للعامة من الأسواق، واقتحموا باب ينتجمي من أجل التخلص منه في الحال^(٢) وكاد الأمر يتحول الى مأساة عندما رغب حرس السلطان غلق الباب على المقتحمين وقتلهم ولكن السلطان رفض قتل العامة، وأمر وزيره بأن يدفع الناس بركائز المزاريق لا بالأسنة^(٣) ويلاطفهم الى ان سكنت ثورتهم^(٤) وتمكن السلطان أخيراً في السيطرة على الأوضاع، وعزل حاكم المدينة لعجزه عن صد المتظاهرين من

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص ٥٦، بن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٧١٦.

(٢) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٧١٦، الزركشي: المصدر السابق، ص ٥٧، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦٨٨.

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص ٥٧، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦٨٩.

(٤) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٧١٦-٧١٧.

العامة، وتبع رؤوس قواد العامة من أجل السيطرة على الأوضاع، وهنا نجد أن السلطان أبا عصيدة استطاع بالحيلة أن يصلح ما فسده وزراؤه ورجال كبار دولته مع العامة^(١).

وعندما تداخلت وظائف ومهام المناصب نجد أن الحاجب الوزير ابن غمر قد استبد استبداداً شديداً بالسلطان، وتحكم ابن غمر في جميع الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عهد السلطان أبي البقاء خالد ومن بعده السلطان ابن اللحياني الذي هو الآخر لم يستطع أن يقضي على استبداده على الرغم الشديد من ضيفة منه^(٢) وساءت علاقة بن غمر بالخاصة والعامة، واشتد خناقه على العامة مما جعلهم يفكرون في التخلص منه، فيجتمع عامة قسطنطينية وقرروا الفتك بابن غمر عام ٧١٣هـ/١٣١٣م ولكنه تفتن لذلك، وقام بالايقاع بهم وقبض عليهم، وأوقع بهم، وعذبهم ونكلهم عذاباً شديداً، وبلغت علاقاته بالعامة الى أحلك الظروف حيث اشتد في معاملته لهم، وشدت القسوة عليهم، وتحكم في أعمارهم ولم يجد من السلاطين من يرده الى رشده^(٣). في ظل غياب السلطان القوي المسيطر على أمور مملكته.

وبعد أن يأس السلطان أبو يحيى زكرياء اللحياني من اضطراب الأحوال وسيطرة الوزراء على جميع البلاد والسلطات ولم يجد ما يستطيع ان يبقي من

(١) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٧١٧، الزركشي: المصدر السابق، ص ٥٧، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦٨٩.

(٢) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٧٤٦-٧٤٧.

(٣) الزركشي: المصدر السابق: ص ٦٣.

أجله على العرش فهو لا يحرك ساكنًا على الرغم من حبه للعلم والعلماء^(١) فقرر الهروب للمرة الثانية ولكن كانت هجرة بدون رجعة الى تونس الحفصية، وجعل على طرابلس ابن عمران الذي اتخذ وزيرًا يسمى البطيس الذي اذاق العامة الويل والعذاب والظلم. فأشدت الثورات الدامية ضدهم، حتى ضجر وتبرم العامة من أفعال وتجاوزات الوزير البطيس، فقاموا عليه وطردهوا السلطان الضعيف ووزيره المستبدة^(٢).

(١) المصدر السابق: ص ٦٢.

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٨١.

علاقة الوزراء بالمتصوفة^(١)

عرف المغرب التصوف والمتصوفة، انتشرت الفرق الصوفية في شتى انحاء بلاد المغرب^(٢) وتواجد المتصوفة بأفريقيا منذ العهد الزييري، كان المعز

(١) المتصوفة: جمع متصوف والصوفي هو من اتصف بالصلاح والفقر، ولبس زي الصوفية والا يكون مشغلا بحرقه، والتصوف هو لبس الصوف لغوياً وهذا ليس صحيح وانما تسموا بالصوفية نسبة الى المصافة بسبب عكوفهم على البادة والانتقطاع الى الله سبحانه وتعالى والبعد عن زخرف الدنيا، وأخذت بكل ما يسمونه بالأخلاق والأديان. راجع: ابو عبد الله الزموري (ابي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الزموري): بهجة الناظرين وأنس العارفين، مخطوط مصور بالميكرو فيلم من معهد المخطوطات جامعة الدول العربية، رقم ١٤٤٧، الرباط ١٣٤٣، ١٤٤٧ تصوف، ورقة ٢٧؛ الأدفوي (كمال الدين بن الفصل جعفر بن ثعلب الأدفوي المصري): الموفي بمعرفة التصوف والصوفي، ت محمد عيسى صالحيه، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ط ١، الكويت ١٩٨٨، ص ٢١، ابن الزيات (ابي يعقوب بن يحيى الشاذلي): التشوف الى رجال التصوف وأخبار أبي عباس السبتي، ت أحمد التوفيق، منشورات لكلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط ٢، الرباط، المغرب ١٩٩٧م، ص ٣٤، البادسي عبدالحق بن إسماعيل البادسي): المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف ص ٢٩، برهان الدين اليافعي: مصرع التصوف أو تسميه الغبي الى تكفيل من عربي وتحزير العباد من المعتاد: ت عد الرحمن الوكيل، ط ١، عام ١٩٥٣، ص ١٦٥-١٦٧؛ محيي الدين عزوز: التطور المذهبي بالمغرب، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٦؛ ص ٤٢، عبد الباسط أحمد علي جودة: الأدب الصوفي والاسلامي، دار الرسالة للطباعة، القاهرة، (د.ت) ص ١٥، التليبي العجيلي: الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي للبلاد التونسية (١٨٨١-١٩٣٩)، تقدم رشا الإمام، منشورات لكلية الآداب بمنوبة تونس ١٩٩٢م، ص ٢٠٠، ٢٦، Adler: op cit, p. ١٠٠

(٢) محمد عادل عبدلعزیز: التربية الاسلامية في المغرب، (اصولها المشرقية وتأثيرها الأندلسية)، مطابع الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧، ص ١٢٢، محمد اسماعيل: المرجع السابق، ص ١٩٤.

بن باديس يتابعهم ويقتلهم، وظلت هذه الجذور جيدة حتى العهد الحفصي^(١) وانتشرت قواعدها المتينة في مناطق مختلفة في البلاد التونسية^(٢) وارتبطت الصوفية بالمساجد والرباطات^(٣) حيث ملازمة الصوفية لهما من أجل القيام بوظائف ومقومات منها السكني والاحتراس ومجانبة الناس والانفراد والانقطاع والتعبد ومزاولة نشاط علمي وذكر وقراءات الأشعار والرقائق^(٤) ظل الصوفيون في المساجد حتى ظهرت الزوايا وبدأت في استقطاب الصوفيين وانشطتهم منذ أواسط القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي^(٥) وانتشر الصوفيون بأعداد كبيرة وكانت جذورهم من البربر^(٥)

(١) البرزلي: فتاوى ج٦، ص ٤٢٢-٤٢٤، سعد الغراب: العامل الديني والهوية التونسية، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٩٠، ط ٢، ص ١٦٦-١٦٨.

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٦٣.

(٣) الرباط: هو موضع الحرس في الأوقات التي يتوقع فيها العدو والرابطة هي سكنى هذا المكان يشتهه بالحراسة وجلب الأهل اليه من أجل الاستيطان ولم يكن مجرد انعزالات للزهاد والنسك يتعبدون ويتجهدون فيها، بل كان حصوناً ثغرية لحراسة السواحل وحماية الملاحة البحرية، واصبحت الرباطات مقر للصوفية، فأصبح هدفها الجهاد والتعبد. راجع البرزلي: فتاوى، ج ٢، ص ٣٠، ٣٣، ابن الأبار (ابي عبد اله بن الأبار القضاعي البلنسي): ديوان ابن الأبار، قرأه وتعليق عبد السلام المهراس، مطبعة فضاله، المغرب ١٩٩٩، ص ٤٥١، في لصوفية ي الاسلام، ص ٤، جوزيف شاخ، ليكفور بوزورث: تراث الاسلام، ترجمة حسين مؤنس، صدقى العمدة، مراجعة فؤاد زكريا، عالم المعرفة، ط ٣، ج ٢، ص ٦٢.

(٣) البرزلي: فتاوى، ج ٢، ص ٣٣، ٤٥١، نلي سلامة: المرجع السابق، ص ٩١.

(٤) نلي سلامة المرجع السابق: ص ٩١.

(٥) مجهول: تاريخ البربر، المعروف بمفاخر البربر، تقديم وتحقيق محمد زينهم، جهاد للطباعة والنشر ط ١، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٧٤-٨٥.

فكان التصوف من أعظم أنواع التفكير عند المسلمين في العهد الحفصي^(١).

وفي عهد السلاطين الأقوياء ووزرائهم نشط الصوفيون ونالوا أعلى درجات الاهتمام لأنهم لم يكن لهم أطماع سياسية بالنسبة للحكم، بل قرب السلاطين والوزراء المتصوفة إليهم^(٢) فقاموا بتوفير الأماكن الخاصة لهم من زوايا ورطات والعناية بهم ووقفوا عليها احباس كافية^(٣) وتجمع الصوفيون بأعداد كبيرة في الزوايا الحفصية التي حرص السلاطين والوزراء على إنعاش هذه الزوايا مما انعكس على دور الصوفيين الاقتصادي والاجتماعي^(٤).

والتف الفقراء والمساكين حول الصوفيين في الزوايا مثل زاوية المرجاني والمغربي بتونس وزاوية القديدي بالقيروان، وزاوية الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الكافي بصفاقس، وكان لتقارب السلاطين ووزرائهم للصوفيين جعل السلاطين الحفصيون يأخذون برأيهم في ولاية العهد، وهذا ما حدث عندما أصاب أبا حفص عمر مرضاً، فعهد لولده عبد الله بالحكم من بعده فاعترض الوزراء وشيوخ الموحدين لصغر سنه وأنه لم يبلغ الحلم فبعث السلطان للصوفي الصالح الوارع أبي محمد المرجاني، وتحدث معه في ذلك فأشار عليه بجعل الولاية من بعده الى محمد بن الواثق الحفصي، الذي حملت فرت به إحدى

(١) محمد الهادي العامري: المرجع السابق، ص ٢٠٢.

(٢) عبد العزيز بن عبد الله: معطيات الحضارة المغربية، دار نشر المعرفة، ط ٣، الرباط، المغرب، (د-ت)، ج ١، ص ١٦٠.

(٣) العلمي: كتاب النوازل، ج ٣، ص ١٠٥، ١٠٦.

(٤) نيللي سلامة: المرجع السابق، ص ١٤٦.

الجواري وهي حاملا الى زاوية الشيخ المرجاني فقبلها عنده، وعندما وضعت سماه الشيخ المرجاني محمد وأطعم الفقراء والمساكين في عقيقته عصيدة الحنطة فلقب بأبي عصيدة ثم تربى في ظل السلاطين الحفصيين وبقيت له مع المتصوف ابن المرجاني ذمة، وبالفعل وقع الاختيار على محمد بن الواثق الشهير بأبي عصيدة^(١).

قام الشيخ المرجاني وباركه ودعا له وبويع البيعة الخاصة في يوم الأربعاء ٢٢ ذي الحجة ثم بويع البيعة العامة بعد وفاة السلطان ابي حفص عمر مباشرة، بمساعدة الشيخ الصوفي والوزراء الحفصيين الذين باركوا هذه البيعة^(٢) وكان لهذا الصوفي الكلمة النافذة في السلطان وسيطرة عليه كلية وعلى أمور الدولة مع الوزراء، وبلغت الصوفية والصوفيون أسمى الدرجات وأفضل الظروف ابان فترة السلطان أبي عصيدة والشيخ المرجاني^(٣).

وقام الصوفيون في ظل الحماية والرعاية من السلاطين الأقوياء ووزراؤهم بالتدريس في الزوايا والأربطة فالتف حولهم طلبة العلم حيث تتوفر جميع ظروف المعيشة^(٤) وقام الصوفيون أيضا بمساعدة الوزراء عند هروبهم فحدث هذا عندما هرب احد الوزراء سنة ٧٠٥ هـ اليهم في زاوية أبي الحسن علي بن

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص ٥٤، ابن الشاع: المصدر السابق: ص ٥٣، ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٧٠٩، ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٢) الزركشي: المصدر السابق: ص ٥٥، ابن الشاع: الأدلة ص ٥٣، نلي سلامة، المرجع السابق، ص ١٤٨، مقديش: نزهة الأنظار، ج ١، ص ٥٦٠.

(٣) الزركشي: المصدر السابق ص ٥٥.

(٤) محمد البهلي النبال: الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي: مكتبة النجاح، تونس، ١٩٦٥، ص ٢٦٤.

عبد الكافي الموجوده بصفاقس، وكان معه خمسة بغال محملة بالذهب والسروج والملبوس وحلل وغيرها من أنواع اللباس، ونزل هو وخادمه على الصوفيين بالزاوية المذكورة^(١) و هن نجد أن الوزير أصبح في حماة الصوفية الذين استمدوا هذه الحماية من الزوايا التي أصبحت حرماً لا يتتهك، ورد الصوفي الشيخ ابي الحسن علي بن عبد الكافي على الجنود الذين جاؤوا يبحثون عن الوزير الحفصي، وأرادوا القبض عليه كرهاً وقال لهم "يا فرسان لا تهتكوا الحرام"^(٢)، وهنا نجد أن أماكن تواجد الصوفيين أصبحت محرمة، ولا يوازيها سلطة فيقول الشيخ الصوفي "من أتانا زائر جمع مجبور الخاطر، ومن أتانا بجور غائر أعمر الله به المقابر" وهذا يدل على مصير من يفكر في اقتحام ديار الصوفية من زوايا واربطة ومساجد^(٣)، متحدين سلطة السلطان وأعوانه من الوزراء، ويدل هذا على من وصل آلية الصوفيين من مكانة داخل المجتمع الحفصي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ودينيا^(٤).

واستمر الصوفيون في دورهم في ايواء الوزراء الفارين اليهم، ليس تحديا للسلطان و وزرائه بل من أجل جعل مكانتهم أسمى والحفاظ عليها، وذلك عندما هرب الوزير الحاجب ابو عبد الله محمد بن الدباغ وزير السلطان الحفصي أبي بكر الشهيد، عندما قتل السلطان وتولى لحكم أبو البقاء خالد^(٥)،

(١) مقديش: المصدر السابق، ج٢، ص٣٠٣، نللي سلامة: المرجع السابق، ص ١٥٠.

(٢) مقديش: المصدر السابق: ج٢، ص٣٠٥.

(٣) المصدر السابق: ج٢، ص٣٠٤، نللي سلامة: المرجع السابق، ص ١٥١.

(٤) نيللي سلامة: المرجع السابق ص ١٥١، برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص ٤٦٣.

(٥) الزركشي: المصدر السابق، ص ٥٩-٦٠.

ولجأ الوزير الى الصوفية الموحدين في زاوية الزبيدين بتونس، ولم يستطع وزراء السلطان ابو البقاء خالد بالقبض عليه داخل الزاوية وهو في حماة الصوفيين بل استخدموا الحيلة والاحتيال حتى خرج الوزير ابن الدباغ وقبضوا عليه وأرسلوه إلى السلطان^(١) وهذا يؤكد دور الصوفية داخل المجتمع الحفصي، وخشية السلاطين منهم وكانوا دائما يتقربون اليهم والدليل على ذلك أن وزير الإنشاء لأحد السلاطين الحفصيين قد لجأ الى الصوفيين لزاوية الشيخ الصالح العابد ابي محمد بن ابي بكر بن عيسى، ولم يستطع السلطان من دخولهما والفيض عليه^(٢) ظل زير الانشاء مستجيراً بالصوفيين مدة ستين ولم يتعرض السلطان لهم وله حتى وقع الصلح بين السلطان و وزيره.

وهنا نجد أن دفاع الصوفيين عن الوزراء ليس حباً وتحيزاً للوزراء وعداً للسلطان الحفصي و وزراءه الآخرين بل كانت من أجل إثبات الذات، وفرض انفسهم وهيتهم على المجتمع الحفصي، ومع اهتمام السلاطين الحفصيين و وزراءهم بالصوفية، فنجدهم استحوذوا على عدد من ممارسات والطقوسات التي كانت دائمة عند أهل الحديث نظرا لطابعها الثمالي مع السيرة النبوية بوصفها المثال الأعلى النموذجي الذي يقتدي به، ويشكل المرجعية المعيارية لأي سلوك أو تصرف فيضفى على أهل التصوف مشروعية كانوا في أمس الحاجة اليها في القرون الأولى لظهورهم وبعدهم الى دائرة المرجعية السنينة التي اهتموا بالخروج عليها والارتباط بالدعوة الشيعية^(٣).

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص ٦٠.

(٢) نللي سلامة: المرجع السابق، ص ١٥٢.

(٣) ابن خلدون: المقدمة: ج ص

على الرغم من تأثيرهم في المجتمع الحفصي منذ عهد السلطان أبي زكرياء الأول ووزراؤه استطاع شيخ المتصوفين ابو الحسن الشاذلي أن يبلغ أعلى درجات السمو لدى السلطة الحفصية في البلاد التونسية وتكوين قاعدة صوفية كبيرة انطلقت في جميع بلاد المغرب الأدنى خاصة والأوسط والأقصى عامة، وكان لهؤلاء الصوفيين أماكن تواجد في قرطبة وطرابلس والقيروان والجريد، وحينما حطوا^(١) التف الناس من حولهم لما أظهره الصوفيون من قوة وتعاون سواء بينهم أو مع السلطة الحاكمة حيث قاموا بالخفارة في القبائل واستخراج الأموال وهذا ما فعله المتصوفة الشيخ أي غراره شيخ زاوية في قابس فكانت سلطته قوية على أعراب دباب والمنطقة المحيطة به بسبب أعمال الشعوذة التي سيطر بها عليهم فلا يخالفه أحد، ومن تسول له نفسه يوعده بمصائب يوقعها به فيخافون منه^(٢).

ونجد سيطرة الصوفية وطرقهم وأساليبهم على السلطان الحفصي القوي والورع ابي زكرياء يحيي عبد الواحد الذي كان يتقشف ويجهد نفسه لا يميل إلى الإسراف في ملابسه وركوبه، وكان يلبس جبه صوف وحزام صوف واكله الخشن وكسوته الثياب المرقعة فكان متمسكاً بأحوال الصوفيين والزهد في الحياة^(٣) وتجلى بالسلوك الصوفي الذي انبعث من عنايته بالجوامع والتسابق الي التأذين بنفسه بعد بنائها زاهداً القصور ومعالم العمران مولعاً بالتنكر والتفقد لرعاياه، عطوفاً على البؤساء جاعلاً نصف عيشه تدعيم قواعد الملك بجمع

(١) برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص ٤٦٣.

(٢) التجاني: الرحلة، ص ١٨٠.

(٣) ابن الشاع: المصدر السابق، ص ٥٦.

الاحتياط من الأموال وجعل وزراؤه يحذون حذوه من ناحية التصوف ومعاملة الصوفيين، والزهد في الحياة وعدم الميل إلى الإسراف والترف و أعطى وزراؤه درسًا في التقشف وعدم لبس الملابس الرقيقة وحذرهم من المبالغة في الملبس والمأكّل والمشرب حتى لا يلومن إلا أنفسهم^(١) وكان دائم الجلوس هو ووزراؤه مع الأدباء والعلماء المتصوفين مثل ابن عصفور الصوفي الفقيه، فكان يحاكيه ويناقشه^(٢) وكذلك فعل الوزير ابن تافراجين مع المتصوفة حيث ظل يدعم المتصوفة بكل ما أوتى من قوة عن طريق الحماية والأمان والأموال والتحبس عليهم^(٣).

وتأثر الرعيل الأول من السلاطين الحفصيين ووزراؤهم بالتصوف أكثر من غيرهم، حيث كانت شبكة من المتصوفة ممتدة من الأندلس إلى تونس في قوة خارقة فتكون هنا وهناك وحدة متماسكة متضامنة متكافلة فيما بينها لا يعرف اسرارها إلا الفقيه بها، والعارف بطقوسها وهيئات أن يندمج فيها ما ليس مستعدًا لها^(٤) وأستمر السلاطين الأقوياء ووزراؤهم على علاقات قوية بالمتصوفة فكان معظمهم مثل أبي فارس عبد العزيز محبًا للصوفيين ورجالهم وتقارب اليهم وانفق عليهم الكثير من الأموال^(٥) وكذلك السلطان أبو عمرو عثمان عظم الصوفيين وأعطاهم قدر كبير من الرعاية والاهتمام فأمر وزراؤه

(١) ابن الشّاع: المصدر السابق، ص ٥٥-٥٦، ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٥٦.

(٢) ابن الشّاع: المصدر السابق، ص ٥٤.

(٣) ابن ناجي: معالم الايمان: ج ٤، ص ١٥٨-١٦٠.

(٤) محمد الهادي العامري: المرجع السابق: ص ٢٠٧، الوشّريسي: المعيار، ج ٧، ص ٢٢٧.

(٥) ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٧٥.

من الاكثار من بناء الزوايا لهم، وأقام المشروعات ذات الصبغة الدينية حيث ازدهرت الحركة الصوفية أبان فترة حكمه حيث لقت تشجيعاً وحامساً منقطع النظير من السلطان و وزراؤه مما أعطى الحركة الصوفية والصوفيين قدراً كبيراً من النفوذ مثل الوالي الصوفي الذائع الصيت سيدي ابن ابي عروس الذي عمل على تمثيل الصوفيين أصدق تمثيل في العاصمة تونس^(١). وقام الصوفيون بتوسيع آفاق الإسلام^(٢) وقام السلاطين والوزراء بتزويد زواياهم بالامدادات^(٣).

واستمرت علاقات السلاطين والوزراء قوية مع الصوفيين في أطوار قوة الدولة، مما انعكس على الصوفيين الذين قاموا بأعمال عديدة منها إطعام أهل السفر والواردين عليهم حيث جعلوا على طعامهم البركة وهنا يقول أحد

(١) برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص ٢٧٢-٢٧٣.

(٢) انور الجندي: الاسلام وحركة التاريخ، رؤيا جديدة في ما حقه الاسلام، دار الكتاب اللبناني، بيروت د.ت، ص ٣٦١.

(٣) الاقطاع: هو في التاريخ الاسلامي يعني الأرض التي ليس لها مالك ولمنح الفرد ما أي جهه معينة مقابل أن يدفع خراجها او عشورها، والمعنى اللغوي لها يقال اقتطع طائفة من الشيء أخذها واستقطعه اياها أي ساءه أن يقطعه او يعطيه اياها راجع: الفيروز أبادي أجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق مؤسسة الرسالة، اشراف محمد نبيه العرقسوس، طبعة فنية منقحة ومفهرسة، طبعة أجاد التراث العربي ط١، بيروت، ١٩٩٧، ص ٢٤٧٢، المقرئزي: الخطط المقرئزية، ج١، ص ٩٥؛ حول نظام الاقطاع في المغرب راجع: محمود اسماعيل: الاقطاع في العالم الاسلامي، حويلات بكلية الآداب، تصدر عن مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الحولية الحادية عشر، الرسالة التاسعة والستون، الكويت ١٩٩٩، ص ٤٥-٤٨.

الصوفيين ابي الحسن علي بن عبد الكافي لمسافرين مروا عليهم بزاويته ناحية صفاقس " انزلوا يا فرسان على بركة الله وكلوا طعام الزاوية " يعني هنا طعام الصوفيين ويقول " ما لكم لا تأكلون من طعام البركة " أي أصبح الصوفيون يسيطرون حتى على الواردين والوافدين على البلاد الحفصية من حيث استضافتهم وإطعامهم^(١) وتأمين طريقهم ورد أموالهم المسلوقة منهم على أيدي الأعراب^(٢)

وظهرت للصوفيين كرامات^(♦♦) جعلت السلطة والعامّة تقترب منهم وسيطروا سيطرة كاريزماتية على جميع طوائف المجتمع، فكان الصوفي ابن أبي عمران موسى المنادي أحد الأولياء الصوفيين بالقيروان عندما ظهرت إحدى كراماته للسلطان ابي زكرياء يحيى حيث جعل الناس يتبعون هذا السلطان وظهرت هذه الكرامات فبدأ الناس يخافونه^(٣) وظهرت لهم كرامات جعلوها كوظائف دائمة لهم ظلت مرتبطة بهم طوال الفترة الحفصية مثل انزال الغيث ونمو الغرس، وظلت هذه الكرامات تتناقلها الأقوال^(٤) فنجد المتصوف ابن

(١) مقديش: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٠٤.

(٢) نللي سلامة: المرجع السابق، ص ١٥٣.

(♦♦) الكرامات: جمع كرامة وهي لا تفتح ولا تظهر الا لمن هو ممسك بطاعة الله تخصيصاً وتفضيلاً، وتعبير الكرامة تعبير أدبي من لون معين غالباً ما يكون عبارة عن حكاية مصيره تروى قصة بطل قومي أولى له صالح من القدرات ما تمكنه من تحقيق تلك الخواطر. راجع عبد الحق البادسي: المقصد الشريف، ص ٣٩، الونشريسي: المعيار ج٢، ص ٣٨٧-٣٩٢.

(٣) ابن ناجي: معالم الايمان، ج٤، ص ١٤٠.

(٤) نللي سلامة: المرجع السابق، ص ٣٢٣.

(*) وهنا نلاحظ مبالغاة كبيرة بالنسبة للكرامات وذلك بسبب شدة الجهل الذي انتشر في

سعيد الباجي له عدة كرامات منسوبة إليه منها إشفاء المرضى بالرقية، وإطلاق السجناء، وعتق العبيد، واشباع شهوات الأطفال والنساء من المأكّل وغيرها، وكذلك كرامة تغيير جنس مولود^(*)، فكانت الظروف الاقتصادية الصعبة في عهد التدهور ونفوذ الوزراء وضعف الحكام تسيطر على القلة والفقراء والمساكين مع تزامنها مع مجاعات وفترات جفاف فكان اللجوء الى الأولياء الصوفيين في طلب نزول الغيث^(١) والمخرج الوحيد لحل تلك الأزمات التي عصفت بالمجتمع الحفصي.

وذيع صيت صوفي آخر اشتهر بكراماته هو أبو يوسف الدهاني الذي فرض وجود تخصص في نمط معين من الكرامات حسب الأولياء تقال لله رجال يغرقون الحوت من البحر ولله رجال يقبضون الدنانير من الرمال ولله رجال يركبون السباع ولله رجال إذا بكوا بكيت السماء لبكائهم موافقة لهم^(٢) بل وجدت الصوفيات الحفصيات أصحاب الكرامات مثل السيدة عائشة المنوبية^(٣) ولقت اهتمام وعناية من السلطان الحفصي المستنصر بن أبي زكرياء

مجتمعات تلك الفترة التي أصابها التدهور والانحيار بسبب تدهور الحالة السياسية للبلاد ثم الاقتصادية حيث كان الصوفي يقوم بنشر الكرامات بين الناس، وتنقلها الأفواه لتصبح حقيقة بعيدة كل البعد عن الواقع.

(١) المرجع السابق، ص ٣٢٣-٣٢٤.

(٢) ابن ناجي: معالم الإيمان، ج ٣، ص ٢٢٦.

(٣) السيدة عائشة المنوبية: هي عائشة بنت الشيخ أبو موسى عمران بن الحاج المنوبي وأمها فاطمة بنت عبد السميع ومولدها بقيرية منوبة غربي تونس، نشأت في حجر أبيها واعتنى بربيتها، فعلمها القرآن وأحسن حفظه، ثم لاحت عليها علامات الزهد والتصوف والصلاح وقيل ظلت على عزوبيتها ولم تتزوج وقيل تزوجت وكان شأنها العبادة وغزل الصوف وأخذ الصوفية

الحفصي وزرائه فكان لها تأثيراً اجتماعي ونفوذ عظيم على الناس ليست كراماتها الاجتماعية الخارقة منها اغاثة المسافرين وفك الأسرى وانزال الغيث وتأمين من لجأ اليها على حياته وغيرها^(١) وبلغت الخرافات مداها وعلاقاتها بالسلطان المستنصر الحفصي حيث اشترطت أن يزورها هو ووزراؤه حافة القدمين، فهبط السلطان من القصة حافياً مثل ما قالت له ولما ورد عليها قالت له والله لو جئتنا بنعال في رجلك لقطعنا ظهرك^(٢).

ولم يكن الصوفيون مقبولين من جميع فئات الشعب أو السلطة الحاكمة حيث كان أحد وزراء السلطان الحفصي المستنصر يضمركره والعداء للمتصوف والورع غيث الحكيمي من أولياء القيروان، فشكى ذلك إلى الولي الصوفي أبو علي سالم القديري، فأرسل في طلب هذا الوزير فلما وصل إلى باب الزاوية، نزل عن ظهر جواده، ومشى على قدميه حتى وصل الشيخ وتمرغ على قدميه وقال له يا سيدي ما حاجتك ومعتقدك عامل على زيارتك، نعم ما تأمرني به بالسمع والطاعة^(٣) وتسرب التيار الصوفي إلى صفوف العلماء المحافظين غير أن هؤلاء أنفسهم لم يفرطوا في مواقعه، وكثرا ما شجبوا أعمال

عن الشيخ الصوفي الجليل الامام حسن الشاذلي: راجع حسن حسني عبد الوهاب: شهرات تونسيات، ص ١١٧-١١٨، نللي سلامة: المرجع السابق، ص ٣٣١.

(١) نللي سلامة: المرجع السابق، ص ٣٣٣-٣٣٦.

(٢) نيللي سلامة: المرجع السابق، ص ٢٦٥-٢٦٦ وهنا نجد شيئاً من المبالغة من جانب تلك الكرامات فكيف ينزل السلطان ووزراؤه حفاة من أجل أحد الأولياء الصوفيين، وكيف يقبل ذلك السلطان ووزراؤه ذلك، فهنا نجد أن مناقب السيد السيدة المنوبية قد يكون لها مبالغات منها هذه القصة،

(٣) ابن ناجي: معالم الايمان، ج ٤، ص ٣٦.

السحر والشعوذة والوهم، ووقف العلماء موقف محترز من سلوكيات المتصوفة بالرباطات والزوايا شاجبين البدع المنتشرة من سماع وغناء ورقص وكرامة ولباس المرقعة، رغم اعتقاد السلاطين والوزراء وبعض العلماء من صحة بعض الممارسات الوهمية للمتصوفة، فأنتهم استنكروا تلك البدع والكرامات^(١) حتى العلماء انقسموا على أنفسهم ولم يستطيعوا أن يقفوا موقفًا موحدًا تجاه الصوفيين الذين ازدادوا واستفحل نفوذهم أبان الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وهيمنة الاقطاع المرتجع على شتى مظاهر الحياة، واختلفوا في مسألة السماع، فأعتبره البعض مباحًا لكونه غذاءً روحياً، وشجبه الأغلبية، ورأت أنه في حكم المكروه أو المحظور^(٢).

وكان النساء يقبلن على المتصوفة في مسجد الصفصافة وزوايا تونس من الداواه والرقى، مما وجه للصوفيين العيب والنقد الشديد من الفقهاء، فرد عليه المتصوفة بتداوي النساء على يد طبيب نصراني بتونس دون حرج^(٣) واكتظت حلقات الصوفيين بكثير من المشعوذين والمندسين الذين يتظاهرون بالبكاء والانزعاج لأغراض خبيثة من أنفسهم، ومع ذلك وجد البعض أن هذا النحيب متنفس لمشاكله الشخصية ومعاناته الخاصة^(٤) بالإضافة أصبحت

(١) البرزلي: فتاوى، ج٦، ص ٢٧١-٢٧٣.

(٢) المصدر السابق، ج٦، ص ٤٠٧-٤٠٨.

(٣) المصدر السابق، ج٦، ص ٤٤٣-٤٤٤، ص ٤٠٨-٤٠٩، محمد حسن: المدينة والبادية: ج٢، ص ٧٤٩. وهنا نجد ما وصلت إليه الحالة المتردية للحياة الاجتماعية والأخلاقية في المجتمع الحفصي حيث الإقبال الشديد من النساء على المتصوفين مما أدى بالتأكيد إلى انتشار الفاحشة والرذيلة بين هذه الفئات مما جعل المتصوفة يردون على رجال الدين.

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية، ج٢، ص ٧٥٢.

أماكن تواجد الصوفيين من زوايا ورباطات في فترات نفوذ الوزراء وضعف السلاطين ملجأ إلى الجناة والتوازن ومستغرقى الذمة والهاربين من السلطة الحفصية^(١) وأصبحت مصدرا للخرافات ومبعثاً للأوهام وتحديراً للعقل وإفناء للإرادة في مهب الرياح بضعفه وأن له رزقاً مقدراً لا يعود ويصل إليه بدون سعي و الشيخ هو طبيب النفس ومصلحها حيا وميتاً^(٢) على الرغم من الصوفية لعبوا درواهاما في الجهاد ضد النصارى وضد هجمات العدو على البلاد، فكان الصوفي هو الجيش للحماس الديني^(٣) وظلوا يقاتلون ومعهم العامة بجانب الجيش الحفصي بقيادة الوزراء الحفصيين ضد حملة لويس التاسع على أفريقية حتى وقع الصلح بين المستنصر بالله وبين النصارى^(٤) كما كان للصوفيين مرتبة عليا كمصدر مشروع للحكم حيث تقرب اليهم السلاطين والوزراء لأخطاء الشروعية للسلطة السياسية وهذا ما فعله الداعي أبي عمارة عندما استولى على تونس حيث كان يتظاهر بمعرفة الرجال الصوفيين الصالحين كالمرجاني والزبيدي الجلاسي^(٥).

وهنا لعب الصوفيون دوراً تاريخياً هاماً للسلاطين الحفصيين والوزراء من حيث إعطاء المشروعية تجسدها حركة المهدي ابن تومرت وعقيدته وهذا يبين

(١) الوثنرسي: المعيار، ج ٣ ص ١١٢، ١١٣، ٢٠٠.

(٢) محمد الهادي العامري: المرجع السابق، ص ٢٠٩-٢١٠.

(٣) ابن ناجي: معالم الإيمان: ج ٦، ص ٦٩، رشا سالم: المرجع السابق، ص ٣٣٠، عبد الكريم الكريم: المغرب في عهد الدولة السعدية، دراسة تحليلية لاهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، الناشر شركة الطبع والنشر الدار البيضاء، المغرب، ١٩٧٧، ص ٧٥.

(٤) ابن دينار: المصدر السابق: ص ١٥٨، ١٥٩، ابن ناجي: معالم الإيمان، ج ٤، ص ٢٥-٢٦.

(٥) نلي سلامة: المرجع السابق، ص ٢٧٩.

لنا ولو جزئياً سياسة السلاطين والوزراء الحفصيين اتجاه الصوفيين وأوليائهم والسعي الدائم الى كسب ودهم ومراضاتهم وتوظيف الولاية لأهداف وتحركات سياسية محددة، فنجد السلطان المستنصر الحفصي يطلب أحد المتصوفين بحضور الصلح فرفض وامتنع عن الشهادة على الصلح^(١) وهذا يبين لنا دور الصوفية السياسي وسيطرتهم على السلاطين ووزرائهم، وما يشبه من زيادة نفوذ الصوفية على نفوذ الوزراء من ناحية اختيار ولي العهد والسلطان الجديد على الرغم من قوة نفوذهم ابان فترات ضعف السلاطين^(٢).

فهذا يعتبر دلالة قوية من أجل تدعيم مشروعية السلطان وارتفاع شأن الصوفية، حيث أرسل السلاطين الحفصيون المتصوفين كسفراء الى الدول الأخرى، مثلما أرسل السلطان ابو يحيى الشيخ الصالح الصوفي الزبيدي ابن ابي تاشفين عبد الرحمن صاحب تلمسان من أجل الصلح بينهما^(٣) وكذلك أرسل الصوفي يوسف بن يعقوب الملاري الى تلمسان لاقامة الصلح بينه وبين أبو حمو^(٤) وظل تقدير السلاطين الأقوياء ووزرائهم موجوداً فكان يقبل السلاطين شفاعتهم، وهنا عندما حاصر السلطان أبو فارس عبد العزيز ووزرائه طرابلس سنة ٨٨٣هـ / ١٤٠٠م، واستطاع الاستيلاء على المدينة ورفع الحصار بعد أن تشفع له الصوفيون بالمدينة واستولى عليها هو ووزرائه برغبة

(١) ابن القنفذ: - الفارسية، ص ١٣٢؛ الغبريني: عنوان الدراية، ص ١١٦، ١١٨.

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص ٥٣-٥٤؛ ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٥٢.

(٣) الزركشي: المصدر السابق: - ص ٦٨، ابن بطوطة: الرحلة: ج١، ص ١٥٧-١٥٨.

(٤) ابن القنفذ: أنس الفقير، ص ٥٣، نللي سلامة: المرجع السابق، ص ٢٨١.

أهلها وصلحائها^(١).

واستطاع الصوفيون في فترات نفوذ الوزراء وضعف السلاطين أن تضفي صيغة روحية أدنى مما كانت عليه في الأصل وبعدت عن أصولها ونشأتها الأولى بسبب دخول العوام الحركة وتغلغهم فيها^(٢) وهكذا نجد أن الصوفيين استطاعوا من التأثير في شتى مجالات المجتمع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي وذلك بفضل المتصوفين العظماء الأوائل الذين تمسكوا بأصول الصوفية وطرقها بعيداً عن الأهواء والميول الذاتية، فسيطروا على السلاطين الوزراء والقبائل والعامة بكراماتهم التي تتداولها فيما بينهم وكانت لهم إيجابيات في المجتمع الحفصي على شتى الأصعدة، على الرغم من انتشار البدع والخرافات والخزعبلات والأساطير بينهم ونشروها بين فئات المجتمع من أجل حماية أنفسهم وأتباعهم.

فظهرت حركة ادعاء التصوف وتعددت الطوائف الصوفية^(٣) فتسرب اليهم الانحرافات والشذوذ بعد القرن الثامن الهجري واندساس الأدعاء في الزوايا والرباطات مما أدى الى انتحال الكثيرين من الصوفية معاني السحر والجاذبية والسيطرة على معتقدات الناس^(٤) وميز ابن خلدون بين المتصوفة ومدعي التصوف و وصفهم بأنهم قوم بهاليل معتوهين أشبه

(١) الزركشي: المصدر السابق: ص ٢٠٠.

(٢) برنشفيك: المرجع السابق: - ج ٢، ص ٤٦٤.

(٣) محمد القبلي: الدولة والولاية، ص ١٠٠.

(٤) أنور الجندي: الإسلام وحركة التاريخ، ص ٢٦، عبد العزيز بن عبد الله: معطيات الحضارة،

بمجانين من العقلاء^(١) فقام علماء وفقهاء تونس بمعارضتهم وانتقادهم^(٢) وعارض الفقهاء هذا اللون من البدع التي أحدثها هؤلاء الدراويش البهاليل، وانتشرت بين البوادي حيث الجهالة وظروف المعيشة الصعبة فكانت ثرية خصبة للانحراف^(٣) فسيطروا على عقول الناس وتعظيمهم^(٤) إنما نسبة لا تقسم من كرامات لا يعتقدونها العقل البشري^(٥)

وأصبح كل جاهل في فترات نفوذ الوزراء يود أن يكون صوفيا بدعوي أنها ليست هناك حاجة لدراسة العقيدة، لأن روح القدس تمنح معرفة الحقيقة لكل من كان له قلب طاهر واستناداً لمزاعم أخرى ليست لها قيمة كبيرة، ولهذا السبب تحلى الصوفيون عن كل أحكام الإسلام وعن واجباته ونوافله ولم يعودوا يتقيدوا بتغيير الطقوس المعهودة عند شيوخهم وراحوا يبيحون لأنفسهم كل المتع التي تعتبرها مراجعتهم مشروعة^(٦) وازدادت بينهم عمليات الغناء والرقص^(٧) وكثروا من شرب الحشيش مدعين أن ذلك يزيد

(١) ابن خلدون: العبر، مج ١، ص ٩٣.

(٢) البرزلي: فتاوى، ج ٦، ص ٢٧١، عبد العزيز عبد الله؛ معطيات الحضارة، ج ١، ص ١٤٩.

(٣) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ج ٢، ص ١٨٩، رشا سالم: المرجع السابق: ص ٣٤٠.

(٤) مرمول كاربخال: أفريقيا، ج ٣، ص ٢٣.

(٥) الزموري: بهجة المناظرين، ورقة ٥، ٩٤؛ إبراهيم القادري: الإسلام السري، ص ١٤٣.

(٦) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٢٧٠، إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ج ٢، ص ١٨٨،

سعد الغراب: العامل الديني والهوية التونسية، الدار التونسية، للنشر، ط ٢ تونس، ١٩٩٠،

ص ١٨٤-١٨٥ هامش.

(٧) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٢٦٩.

من حماسهم عند قيامهم بالأذكار الصوفية^(١) وكثرت بدعهم وزادت الفتاوى والكتب ضدها ومقاومتها والقضاء عليها^(٢) وأصدرت فتاوى تنص على عدم جواز إمامه شيخ منهم ولا شهادته، وتسلطوا على أموال الناس بالباطل يرقصون ويغنون واهمين الناس أن ما يفعلونه يقربهم إلى الله، وأن ذلك هو طريق الصالحين وظلوا يضللون الناس بذلك^(٣) مما جعل الفقهاء يجعلون الأحباس عليهم باطلة ولا يصح التحبيس عليهم^(٤) ومن الصوفيين من خالط النساء معهم في زواياهم يغنون ويتميلون ليس لهم ذكر ولا عبادة سوى بطونهم ويتحلون بالحديد ويخلقون لحاهم ولا يفهم كلامهم وقاموا بالأعمال الباطلة التي انتشرت في المجتمع المحيط بهم أمام السلطة الحفصية الضعيفة من الوزراء المستبدين والسلاطين المغلوب على أمرهم^(٥).

الوزراء والآفات الاجتماعية

لقد كان للوزراء المستبدين والسلاطين الضعفاء دور كبير في قام الثورات الاجتماعية ضد السلطة الحفصية المهشة، فعملت تلك الصراعات والثورات على خلخلة المجتمع الحفصي، وأدت إلى انهيار هذا المجتمع الذي يتميز بالقوة والتماسك الأخلاقي أبان الأطوار الحفصية المزدهرة وسلاطينهم العظماء الذي

(١) محمد الشريف: سبته الإسلامية، ص ١٥١، رشا سالم: المرجع السابق، ص ٣٤١.

(٢) محمد المنوني: التيارات الفكرية في المغرب، مجلة الثقافة المغربية، عدد ٥، ١٩٧١، ص ١٠١ - ١٠٤.

(٣) الوثنريسي: المعيار، ج ٧، ص ١١٧.

(٤) المصدر السابق، ج ٧، ص ١١٨.

(٥) البرزلي: فتاوى، ج ٢، ص ٤٢٦.

سيطروا على البلاد وعلى الثورات بيد من حديد، ولكن عندما زادت الفتن والثورات وضعف السلاطين الحفصيين، وسيطر الوزراء على مقاليد الأمور وتوجيه الأحداث ظهرت أزمات وآفات انعكست على المجتمع الحفصي فانعكست على أفرادها بوضوح منها:

انهيار وتفكك الأسرة الحفصية:

انعكست ظروف المجتمع السياسي الحفصي على الأسرة الحفصية حيث انهارت المثل والقيم بداخلها وظهرت بكل وضوح ابان فترات سيطرة الوزراء وضعف الدولة، حيث تعددت المشكلات الأسرية التي تعرضت لها كتب النوازل، حيث خرج الرجال للحروب الداخلية أو الخارجية وغاب عن زوجته لفترات طويلة دون أن يعرف عنهم أية أخبار، مما جعلها تلجأ الى القضاء من أجل الطلاق^(١) ثم تطلق نفسها بأمر من القاضي وتتزوج بآخر، ولكن تكون المشكلة عندما يعود الزوج الأول ويطلب زوجته^(٢) وظهرت في المجتمع الحفصي امرأة تجمع بين زوجين دون الالتزام بالدين الإسلامي وتحريم الزوجة الجمع بين الزوجين^(٣) وانتشرت حالات البغاء والفجور فوجد من نساء يدعون الرجال أصحاب الفسق للهو إلى بيتهن لممارسة الرزيلة^(٤) وانتشرت عمليات الاغتصاب بين الفتيات، فتذكر النوازل أن فتاة تزوجت ثم

(١) الوثنيسي: المعيار، ج٣، ص ١١٢، ج٤، ص ١٩، ٣٩.

(٢) المصدر السابق: ج٣، ص ٣٧، ج٤، ص ١٩.

(٣) المصدر السابق: ج٢، ص ٤٣٠-٤٣١.

(٤) المصدر السابق: ج٤، ص ٣١٥-٣١٦، كمال ابو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب،

اكتشف زوجها أنها ثيباً وليست بكر، فتعترف بأنه تم اغتصابها كرهاً^(١) وانتشرت بيوت الفجور حيث اتخذت بعض النساء بيوتهن أوكارا للرزيلة والفجور مقابل مبلغ معين من المال يدفعه الرجال مقابل الاستمتاع^(٢).

وكانت عمليات السحاق بين النساء أبان فترات الضعف واستبداد الوزراء، مما جعل الفقهاء يقرون بجلبدهما مائة جلدة إذا ثبت ذلك^(٣) واستمرت عمليات الاغتصاب مع تردي الأحوال السياسية والاقتصادية، فنجد فتيات تم اغتصابهن كرهاً^(٤) واعترفن بفقدان بكارتهن واغتصابهن بكل جرأة وسهولة دون حياء أو وازع ديني يردهن عن الرزيلة^(٥) وزاد هروب النساء والبنات مع عشاقهن الى مناطق أخرى بعيداً عن مساكنهم قد يكون في جبالا أو أماكن نائية^(٦) وتخبئنا كتب النوازل عن فتاة تهب من بيت والدها لاقامة علاقة آثمة مع رجل غريب ولا يستطيع الأب أن يسيطر على أسرته مما ساعد على انهيار الأسرة في فترات الانحطاط والتدهور، فيقوم الوالد بحجزها في البيت يتركها تحيض ثلاث مرات وبعدها يزوجه من الرجل الذي عاشرها

(١) المصدر السابق: ج٣، ص ١٦٦-١٦٧، العلمي: المصدر السابق، ج١، ص ٩٤

(٢) كمال ابو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب ص ٥٣-٥٤

(٣) البرزلي: فتاوى، ج٦، ص ١٥٩.

(٤) الونشريسي: المعيار، ج٣، ص ١٣١، ج١٠، ص ٢٣٠.

(٥) الونشريسي: المعيار، ج٩، ص ٢٣٨، ٥٣٧.

(٦) مرمول كربخال: افريقيا، ج٢، ص ٢٥٢، البرزلي: فتاوى، ج٦، ص ١٦٥، العلمي:

المصدر السابق: ج١، ص ١٠٣.

سرّاً^(١) فانتشر الزنا بين أرجاء المجتمع وتدنّت أخلاق الناس^(٢).

ومع استمرار تخبط الأمر والأوضاع السياسية وانعكاس ذلك على أخلاق المجتمع التي أخذت في الانهيار، نجد هناك رجال دين يأخذون الرشاوي من أهل الفسق والفجور من أجل فتوى برد المطلقة ثلاثاً في طليقة واحدة، مما التف الناس الجاهلون من حوله لأخذ فتواه والعمل بها على الرغم من أنها باطلة^(٣) وظهرت بعض القضايا الخطيرة وهي زنا المحارم فتعرضت كتب النوازل لمثل هذه الأمراض الاجتماعية الخطيرة وهي زنا المحارم فتعرضت كتب النوازل لمثل هذه الأمراض الاجتماعية الخطيرة التي تجعل الأسرة في طريق الباطل، حيث نجد أن الأم تهوى إلى ابنها، فتعرض له في الظلام حتى يطئها وتحمل منه وتضع أنثى وتربيها وتستمر في عمل أوقح من السابق حيث تزوج هذه البنت إلى ابنها فتصيره الزوجه هي أخته وابنته من هذه الأم الآثمة^(٤) ولا ننكر دور اليهود في انتشار الزنا في مناطق عديدة في بلاد المغرب^(٥).

كما انتشرت في تونس في العهد الحفصي ابان فترات نفوذ الوزراء وضعف سلطة السلطان بيوت تمارس فيها الرزيلة والبغاء بأسعار محددة، وصارت هؤلاء النسوة يستمدن حمايتهن من قبل السلطة الضعيفة قد يكون صاحب

(١) الوثنريسي: المعيار، ج٥، ص ٣٤٧، البرزلي: فتاوى، ج٦، ص ١٤٢.

(٢) البرزلي: فتاوى، ج٦، ص ١٦١.

(٣) الوثنريسي: المعيار، ج٥، ص ١٢٠، برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص ١٧٧.

(٤) المصدر السابق: ج٤، ص ٤٧٥.

(٥) عطا ابورية: اليهود في المغرب، ص ١٠٠.

الشرطة أو حاكم المدينة بل صار بعض الرجال يمارسون مهنة التباغين معهم نساء ساقطات في بيوتهن خمر للبيع وصار أي شخص يمكنه الذهاب إلى هؤلاء الرجال لاستمتاع بتلك المنكرات بكل طمأنينة في ظل غياب سلطة قوية تستطيع أن تقضي على هذه المنكرات^(١) على العكس من فترات السلاطين الأقوياء تعقبوا هؤلاء العاهرات وشدد عليها وقاموا بعقابهم وأحيانا ابعادهم عن المدينة^(٢).

وفي أطوار قوة الدولة وسلطانها نجدهم يقومون ووزراؤهم بهدم الأماكن التي كنت تمارس فيها الرزيلة وتشرب فيها الخمر وتحويلها إلى مساجد للصلاة والتدريس بدلا من العصيان والفجور المنتشر في المدينة^(٣) في حين انتشرت عادة شرب الخمر وانتشر معها البغاء والرزيلة في عهد نفوذ الوزراء وساعدتهم على ذلك الوزراء الذين كان هدفهم الأول الحصول على الأموال بشتى الطرق المشروعة والغير مشروعة وباقي رجال الدولة لا يحركون ساكنا طالما هذه الفنادق تجلب إليهم الأموال^(٤) ومع تدهور الأوضاع ظلت عمليات الفجور والزنا وفساد منتشرة رغم مواقف الفقهاء المتعددة ضد هذه الأفعال الشنعاء^(٥) ومع استمرار تدهور الأوضاع السياسية وانتشار الفتن والأخطار الخارجية ظلت هذه الأمراض الاجتماعية الأسرية مستمرة.

(١) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٢٥-٢٥١.

(٢) الزركشي: المصدر السابق: ص ١١٦.

(٣) المصدر السابق: ص ١١٧.

(٤) مارمول كاربخال: أفريقيا، ج ٢، ص ١٤٨.

(٥) الونشريسي: المعيار، ج ٢، ص ٥٣٣، العلمي: المصدر السابق، ج ١، ص ٨٩، ٩٣.

اللوواط:

نتيجة لتدني أخلاقيات المجتمع الحفصي في فترات الانحلال والضعف حيث سيطرة واستبداد الوزراء بالحكم ظهرت على سطح المجتمع الحفصي ظاهرة اجتماعية خطيرة لا تقل عن الزنا والرذيلة، وهي اللواط وعشق الغلمان والتي ظهرت في نطاق ضيق من الخاصة وكذلك من العامة بصورة أكبر^(١) حيث وجد هؤلاء الغلمان المخنثين المتشبهين بالنساء، وحذر منهم الفقهاء والمحتسبون كثيرا، وحرّموا الخلوة مع هؤلاء المخنثين لأنهم مثل النساء في انتشار الفتنة والرذيلة، حيث تشبه هؤلاء المخنثين بالنساء في تطويل شعورهم ونعومة أصواتهم، ولبسوا أحيانا ملابس تشبه ملابس النساء^(٢) وأصبح هؤلاء الغلمان أكثر فاحشة وأشدّ خطرا على المجتمع واشدّ فجور من النساء المحوسات للممارسة عملية اللواط^(٣) وكثرا الاعتداءات على الأطفال بتونس وكثرت بها اللواط في فترات الانحطاط وسيطرة الوزراء^(٤).

وساعد اليهود على انتشار هذه الفاحشة في المجتمع الحفصي حيث أنهم أحبوا ممارسة الرذيلة مع الرجال وبعضهم منذ أقدم العصور^(٥) وانتشرت عملية الانفاق

(١) إبراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس، ص ٩٩، عطا أبو رية، المرجع السابق، ص ٩٨.

(٢) الونشريسي: المعيار، ج ٢، ص ٣٧١-٣٧٣، كمال أبو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب، ص ٥٤ ابن عبد الرؤوف: رسالة في الحسبة، ص ١٢٢.

(٣) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٥٠، الونشريسي: المعيار، ج ٢، ص ٥٠٧، ٤٠٩، ٥٠٨.

(٤) برنشفيك: مرجع السابق، ج ٢، ص ١٧٧-١٧٨.

(٥) ذكي شنودة: المجتمع اليهودي، ص ٤٠٠، رشا سالم: المرجع السابق، ص ٣٥٢.

على الغلمان المرد وتربيتهم داخل البيوت من أجل المتعة الباطلة وعدم الانفاق في سبيل الخير مهما كلفهم ذلك من أموال طائلة^(١) وقام المخشون بتزييف النقود الحفصية، مما جعل القضاة يفرضون عليهم العقاب بحلق رؤسهم وتغيير ثيابهم بثياب خشنة كزي الرجال كما أمروا آباءهم بحبسهم كعقاب لهم من أجل استقرار المجتمع^(٢) ونجد أنه في فترات قوة الدولة وسيطرة السلاطين على أمور الحكم يأمرهم وزراءهم بطرد لمخشين إلى خارج البلاد، فبذكر الذركشي أن السلطان أبا فارس عبد العزيز قد أمر وزراءه بطرد المخشين عن البلاد لما بلغه عنه من عمل المناكر^(٣) حيث بادر بتطهير العاصمة منهم فقطع شملهم وصدع جمعهم ولم تنم له عين حتى قام وزراءه بتنفيذ سياسته في البلاد^(٤).

الغش والسرقة والسحر والتنجيم:

كان للأوضاع السيئة في فترات نفوذ الوزراء وضعف السلاطين وانحيار النظام الأمني في البلاد الحفصية دور كبير في انتشار حوادث السرقة بالإكراه وقطع الطرق إبان تلك الفترات، حيث كان اللصوص يخترقون الأوقات التي يقل فيها الناس فلا يراهم أحد مثل يوم الجمعة وقت صلاة الجمعة^(٥)

(١) الونشريسي: المعيار، ج١٢، ص ٣٧٢.

(٢) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص ٢٥٨، كمال أبو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب، ص ٥٤.

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص ١١٧.

(٤) محمد الهادي العامري: المرجع السابق، ص ١٤٤.

(٥) ابن مريم: البستان، ص ٨٣-٨٤، عبد الله حسين: مظاهر الحضارة في دولة بني عبد الواد، ص ٢٨٨.

ويقومون بالهجوم على المجاشر^(١) وسرقوا ما فيه وأقدموا على قتل رجل من أهل المجشر وتمكنت السلطات من من القبض على بعضهم واقتصت منهم، بينما تمكن الآخرون من الفرار^(٢) وخاف الناس على أموالهم من النهب السريعة فكانوا يضطرون إلى وضعها أمانة في يد من يدافع عنها حتى يزول الخطر والخوف من اللصوص ثم يستردوها أوقات الأمان وقوة السلاطين الذين كانوا يضربون على أيدي المفسدين بيد من حديد^(٣) واستطاع اللصوص من التحرك بقدر كبير في فترات نفوذ الوزراء حيث انتشر قطاع الطرق والمفسدون في الأرض وينهبون أموال وبضائع المسافرين والتجار^(٤)

وقام الأعراب بمهاجمة القوافل التجارية والمسافرين عبر الطرق التجارية واغتصبوا أموالهم والتعامل بالحرام فظهرت المفاصد، والمعاصي والفجور مع ضعف واضح من السلاطين والوزراء المستبدين^(٥) ولكنهم في أوقات قوة الدولة وسلاطينهم، فكانوا يأمرؤن الوزراء بمحاربة هؤلاء الأعراب وقطاع الطرق حيث حق الفقهاء على مثلهم درءاً لشرهم ومفاسدهم والاخلال

(١) المجشر: يعني عند المغاربة والأندلسيون الضيعة أو المزرعة، وقد يعني موضع الزراعة والرعي معا، راجع ابن خلدون، العبر، مج ٧، ج ١٣، ص ١٥٧، القلقشندي: صح الأعشى، ج ٥، ص ٢٠٥، عبد الله بن منصوب: قبائل المغرب، ج ١ هامش ص ٢٨٠، عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ١٤٨ هامش.

(٢) الوثني يسي: المعيار، ج ٢، ص ٤٠٢.

(٣) المصدر السابق: ج ٩، ص ٨٨.

(٤) المصدر السابق: ج ٢، ص ٥٢٨؛ العبدري: المصدر السابق، ص ٢٥٨، برنشفيك: المرجع السابق: ج ٢، ص ١٦٥.

(٥) الوثني يسي: المعيار، ج ١، ص ٤٢٣.

بالوضع الاجتماعي للدولة^(١) وكان هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق يسكنون المناطق الجبلية والبادية والقرى النائية البعيدة عن الحواضر^(٢) منهم أشد خطراً وأعظمهم ضرراً وأكثرهم جرأة وأقلهم حياء ومروءة، ولا يعفون عن ابن السبيل ولا أوضع منهم نفوساً^(٣)

وانتشرت حالات الغش في البيع والشراء بشكل كبير إبان فترات نفوذ الوزراء والاستبداد بالسلطين الذي لم يحركوا ساكناً من قريب أو من بعيد فظهرت عملية الغش في المكيال وتزييفه^(٤)، وخلط الناس السلع الصالحة بالسلع الخبيثة من أجل المكاسب الكثيرة^(٥)، وقام الكثير في الأسواق بالغش في الميزان عند بيع الدقيق والخبز وغيرها من السلع^(٦) وباع الناس بضائع معابة دون أن يذكر للمشتري عيوبها، ولا يكتشف الشاري عيوب البضاعة إلا بعد فوات الأوان ولا يستطيع ردها للبائع لأنه معروف أن البائع انكر العيوب لبضاعته فكيف يقبلها بعد أن انكشف بيعها، فتسلم المشتري بالأمر وبأخذ البضاعة المعابة^(٧) على العكس في فترات قوة السلطين فنجد أن السلطان يأمر وزرائه الضرب على أيدي الغشاشين للكيل والميزان، حيث كانوا يقبض

(١) المصدر السابق: ج٦، ص ١٥٣، ١٥٦

(٢) العبدري: المصدر السابق، ص ٢٧٨؛ ابن خلدون: العبر، مج ٧، ج ١٣، ص ٩٩؛ ابن مريم: البستان، ص ٨٤، كمال أبو مصطفى: جوانب من الحياة الاجتماعية، ص ٥١.

(٣) العبدري: المصدر السابق، ص ٢٧٨.

(٤) البرزلي: فتاوى، ج ٣، ص ١٥٢.

(٥) نفس المصدر السابق والجزء، ص ١٨٤.

(٦) نفس المصدر السابق والجزء، ص ١٩٧.

(٧) رشا سالم: المرجع السابق، ص ٣٥٣، مصطفى أبو ضيف: القبائل العربية، ص ٢٢٦.

عليهم ويزح بهم في السجون ولا يرضخ السلطان القوي لأي واسطة من أجل الافراج عن الغشاشين للميزان^(١).

كما كان لاستبداد الوزراء بالحكم دون السلاطين الحفصيين الضعفاء وازدياد حركات التمرد والعصبية والصراع على الحكم انتشرت عمليات السحر^(٢) والتنجيم داخل المجتمع الحفصي، حيث وجدت التربة الحفصية الخصبة لنمو تلك الأفكار والظواهر للتعبير عن خفايا المجتمع ومشاكل الطبقات الفقيرة التي تحاول أن تهرب من دوامة الصراع والحروب ومن أجل عمل توازن اجتماعي اقتصادي للمجتمع الحفصي^(٣) وربط الشعوذة والسحر بالعجز عن المعاش حياة طبيعية عن طريق الحرف والصناعات المختلفة وارتبط السحر والشعوذة بالحياة السياسية والعجز عن مواجهة ظلم الوزراء المستبدين والحكام الضعاف^(٤) كما كان للصوفيين دورهم في عمليات السحر والشعوذة من أجل السيطرة على المجتمع^(٥) فظهرت بعض الفرق الصوفية الشاذة تستخدم اساليب الشعوذة والسحر وظهور كرامات خارقة تداولها فيما

(١) البرزلي: فتاوى، ج٦، ص ١٥٠.

(٢) السحر ضربا من الخيالات، ويطلق على عدة معان كالفساد والخداع، واصطلاحيا يطلق لى كل ما يطلق دون مأخذة وخفي سببه. راجع: الشماخي: السير، ص ٣٣، ابو ياسر الجزائري: العلم والعلماء، ص ٩٣

(٣) ابن مريم: البستان، ص ٧٧-٧٩، ابراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس، ص ١١٤

(٤) ابن مريم: البستان، ص ١٣٨-١٣٩.

(٥) زاهر رياض: شمال افريقيا، ص ١٦٣، عبد الله أحمد حسين: المرجع السابق، ص ٢٩١.

بينهم^(١).

ظاهرة شرب الحشيش والتبغ:

كان انتشار ظاهرة شرب الحشيش^(٢) والتبغ من العادات السيئة في شمال أفريقيا في بداية القرن السابع الهجري الرابع عشر الميلادي^(٣) وانتشرت بصورة أكبر في تونس الحفصية مع هجرة اليهود من الأندلس ومعهم زاد الإقبال على التبغ إما بالتدخين أو النشوق^(٤) ومع سيطرة الوزراء واستبدادهم وكثرة الفتن والثورات وتدني المستوى الأخلاقي، حيث انتشر بين طبقات المجتمع المختلفة التي يسود بينها الجهل، فاستعملوا الأعشاب الخبيثة في الأنف ويسمونهم طابقوا الغبار طابة ولكن الفقهاء حرموا استخدام ذلك التداوي لأنه نجس ويدخل في تصنيعه كل ما هو نجس كالبول ودهن الخنزير

(١) البرزلي: فتاوى، ج٦، ص ٢٧٢، الونشريسي: المعيار، ج١٠، ص ١٥١.

(٢) الحشيش: يحتمل اشتقاقها من كلمة شيش العبرية ومعناها فرح، وذلك نسبة الى تأثيره المفرح، والحشيش هو لاسم العربي لنبات القنب الهندي، عرفه المصريون واليونانيون والصينيون، ويقال أنه عرف أولا في آسيا ثم انتقل الى أفريقيا وانتشر في جميع المجتمعات الأفريقية، راجع: الوزان، وصف أفريقيا، ص ٢٤٠؛ سيد المغربي، ظاهرة تعاطي الحشيش دراسة نفسية اجتماعية، دار المعارف، عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٠، ١٩٩٦، ص ٤١-٥٢.

(٣) العلمي: المصدر السابق، ج٣، ص ٣٨، عطا أبو رية: اليهود في المغرب، ص ٩٦، مصطفى شوقي: المخدرات والمجتمع نظرة متكاملة، عالم المعرفة، الكويت عدد ٢٠٥، ١٩٩٦، ص ٤٦.

(٤) العلمي: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٠٨-٢٠٩، صالح فياض: دولة بني وطاس، ص ١١٩-١٢٠.

وغيره^(١) واستخدم الحشيش في تونس الحفصية كمادة منبهة وغير مسكرة وكان سعرها غالياً جداً^(٢) كما استعمل الأفيون كمادة مخدرة ولكن يبدو أن استعمالها كان ذات هدف طبي^(٣).

وانتشر شرب الحشيش والتبغ بسفلة القوم وأماكن وجود البغاة والمفسدين وكذلك أماكن تواجد اليهود^(٤) الذين فضلوا شرب وتعاطي الحشيش على شرب الخمر^(٥) حيث كان التجار الأوروبيون يأتون بالتبغ والحشيش وأشياء أخرى محرمة إلى تونس الحفصية والتجارة فيها وذلك أبان فترات نفوذ الوزراء^(٦).

مما دفع الفقهاء ورجال الدين يقومون بإصدار الفتاوى وللقضاء على ظاهرة استعمال التبغ والحشيش والتخلص منها ومن جذورها نهائياً^(٧) شرب الخمر:

انتشرت عادة شرب الخمر المصنع من العنب الطازج في البلاد الحفصية،

(١) العلمي: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٠٦-٢٠٧، ٢١٠.

(٢) الوزان: وصف أفريقيا، برنشفيك: المرجع السابق، ص ٢٨٨.

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ص ٢٨٨.

(٤) العلمي: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٠٨.

(٥) المقرئ: نفح الطيب، ج٥، ص ٢٤٧، محمد الشريف: سبته الإسلامية، ص ١٥١.

(٦) زينب كير: أهل الذمة في الدولة الحفصية، ص ، سامية مسعد: المغاربة ودورهم الثقافي، ص ٢٨.

(٧) العلمي: المدر السابق، ج٣، ص ٢٠٨-٢١٠، عطارية: اليهود في المغرب، ص ٩٦، صالح فياض: المرجع السابق، ص ١٢٠.

فأنه لم يكن ممنوعاً تماماً بالرغم من تحريمه بتنصيب التعاليم القرآنية وانتشرت هذه العادة في الوسط الارستقراطي وكان اليهود والنصارى يقومون بالتجارة في الخمر بأنواعها المختلفة، فكانوا يشربونه في المناسبات الخاصة أو وجباتهم اليومية^(١) ونجد أن المجتمع الحفصي في عهد قوة السلاطين كان لا يتناول الخمر إلا بنسبة بسيطة بسبب الشريعة الإسلامية^(٢) وكان الفقهاء يشددون في التجارة بها.

ولكن في فترات نفوذ الوزراء اشترك بعض المسلمين في عمليات صناعة وبيع الخمر على الرغم من تحريم الدين لها^(٣) ومع تواجد اليهود لا بد من تواجد الخمر على الرغم أنهم نظروا إليها على أنها خطيئة أعمال الشياطين^(٤)

وارتبط انتشار الخمر بقوة السلطان وضعفه، فإذا كان السلطان قويا ومسيطرًا على جميع أمور الدولة يمنع انتشار الخمر داخل البلاد وهذا ما فعله السلطان ابو عمرو عثمان عندما قام بهدم الفندق الذي كان يشرب فيه الخمر وقام ببناء زاوية ومسجد لإقامة الشعائر الإسلامية^(٥) وهناك من السلاطين الأقوياء من يحجر بيع الخمر ويأمر وزراؤه بغلق الخمارات التي يتناول فيها

(١) البرزلي: فتاوى، ج١، ص ٣٦٦-٣٦٧، العلمي: النوازل، ج١، ص ٣٦٦-٣٦٧

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص ٢٨٦.

(٣) العلمي: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٠٦، البرزلي: فتاوى، ج٦، ص ٣٣٩-٣٤٢، ٣٥١-

(٤) Franz rosen: the Jewish foundation of islam , New york p. ١٢٢

(٥) الزركشي: المصدر السابق، ص ١١٦.

الفجار الخمر^(١) على العكس من فترات استبداد الوزراء وضعف السلاطين فيباع الخمر من طرف اليهود والنصارى الى المسلمين عانية، فكانوا يستأجرون المخازن من المسلمين لتخزين وبيع الخمر مقابل مبلغ من المال يدفعها يومياً أو كل عام^(٢) وكانت الأماكن التي يجتمع فيها السكاري في قسنطينة وتونس والقيروان معروفة من العامة والخاصة^(٣).

وكانت القيروان من أنشط المدن استيراداً للخمر من صقلية في العهد الحفصي عن طريق سوسة ونشطت أبان نفوذ الوزراء حيث سمح السلطان الحفصي ووزراؤه لليهود والمسيحيين بنقل وبيع الخمر، مقابل مبلغ مالي كبير، ورغم شكوى الفقهاء واحتجاجاتهم، لم يترد السلطان ووزراؤه في هذا القرار، مما جعل العلماء أن يقاطعون محلات بيع الخمر عن طريق توعية الناس بذلك من أجل اجبار اصحاب تلك المحلات على غلقها^(٤).

وأعطى السلطان الحفصي الضعيف ووزراؤه المستبددين إعفاء كافياً تقريباً على الخمر القادمة على تونس وبجابه مما ساعد على انتشار الخمر بين المسلمين وكان يباع لهم جملة وتجزئة الكل حسب طلبه، وانتشرت المحلات الكبيرة والصغيرة في تونس وبجابه فكان أصحاب المحلات يبيعون للجميع من أهل الذمة والمسلمين^(٥).

(١) برنشفك: المرجع السابق، ج٢، ص ٢٨٧.

(٢) الدباغ: معالم الايمان، ج٤، ص ٩٢.

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص، ابن القنفذ الفارسية، ص

(٤) Mas latrie: op cit p. ٢٢٤ / ٢ / ٣

(٥) Mas latrrie: op cit p. ٢١٣-٢١٤

وانشرت صناعة الخمر عند أهل الريف وفي المنازل أيضًا^(١) وعلى الرغم من فتاوى الفقهاء بتحريم بيع الكروم لمن يعصره لصناعة الخمر من اليهود والنصارى والمسلمين^(٢) وحرمة الفقهاء على الشباب وعملوا على تحريم ترويج صانع وشارب الخمر لأنه سوف يدعو زوجته وأولاده إلى تناوله وصناعة الخمر^(٣) مما يؤدي إلى انحطاط وانحراف المجتمع وانتشار الرذيلة بين أفرادها.

فهناك السلاطين الحفصيين الضعفاء ووزراؤهم المستبدون قد تمتعوا بمباهج الحياة، بسبب تكديس الأموال في خزانتهم^(٤) وانغمسوا في شرب الخمر والتمتع هم ووزراؤهم بالجواري وخاصة أبان فترات الضعف والانهيار حيث نجد أن فسق الوزراء والسلاطين إلى قتلهم، مثلما فعلت إحدى زوجات السلطان الحفصي أبي عبد الله بن الحسن حيث قدمت له السم ومات مسمومًا عام ١٥٢٦م بسبب فسقه وفجوره مما أدى إلى انهيار الحكم الحفصي حيث نادى بابنها محمد الحسن سلطانًا على البلاد^(٥)

الوزراء والأشراف والاحتفالات والأعياد

عرفت البلاد الحفصية طبقة من أعلى وأنبيل طبقات المجتمع ألا وهي طبقة الأشراف^(٦) الذين وفدوا على بلاد المغرب من بلاد الحجاز أو آخر القرن

(١) الونشريسي: المعيار، ج٢، ص ٢٥٠، البرزلي: فتاوى، ج٦، ص ٣٤٠-٣٤٢.

(٢) ابن الزيات: التصوف، ص ١٨٠-٢٢٩، البرزلي: فتاوى، ج٦، ص ٣٤٥-٣٤٦.

(٣) العلمي: المصدر السابق، ج١، ص ٨٣، التنبكتي: نبيل الابتهاج، ص ٤٠٤.

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٥٧.

(٥) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٥٣-٤٥٤.

(٦) الأشراف: مفردها الشريف وهو من القاب المقر والجناب فتقول: المقر شريف والجناب

الثالث عشر الميلادي وهم معروفون بالأشراف العلويين^(١) وهناك الأشراف القادمون من صقلية واستقروا بسبته وهم المعروفون بالأشراف السبتيين^(٢) ثم انتشر الأشراف العلويون في بلاد المغرب الأوسط والأدنى والأقصى وقاموا بأعمال حضارية ودينية لفائدة المذهب السني^(٣) وكان السلطان المستنصر الحفصي محبا للأشراف ومعظما لهم، يحب بيت الشرف، وكذلك كان وزراؤه مثله مما جعله يعجب ويقرب اليه الوزراء المحبين للأشراف ويشكرهم، وهذا يد على أن الأشراف نالوا كل الاحترام والتقدير والتعظيم من جانب السلطان المستنصر و وزراؤه^(٤) وقام السلاطين العظماء ووزراؤهم بالإحسان إلى الأشراف، وظهروا على المجتمع الحفصي بفضل الخطوة التي نالوها من اولئك السلاطين و وزراؤهم^(٥)، وأيضا كان السلطان أبو يحيى بن أبي بكر ووزراؤه

شيف وهذا اللقب مختص بالأشراف أبناء فاطمة بنت علي رضي الله عنهما أي يراد هنا الألقاب المطلقة التي لا تلي المقر والجناب وهو فاعيل من الشرف وهو العلو والرفعة ولا يكون إلا لمن له أباء يتقدمونه في الشرف وهناك أشراف يقلدون من جهة وأشراف جدد طارئون على الشمال الأفريقي واستقروا به. راجع القلقشندي: صبح الأعشى، ج٦، ص ١٧، قلائد الجمان: ص ١٦٠-١٦١، الأنصاري: اختصار الأخبار: ص ٢٧ هامش، محمد الشريف: سبته الإسلامية، ص ١٣٦؛ محمد القبلي: مراجعات حول المجتمع، ص ٨٤

(١) الأنصاري: اختصار الأخبار، ص ٢٧ هامش، محمد الشريف: سبته الإسلامية، ص ١٣٦،

محمد القبلي: مراجعات حول المجتمع والثقافة، ص ٨٤

(٢) رشا سالم: المرجع السابق، ص ٣٤٢، محمد اسماعيل: المرجع السابق، ص ٣٢٦.

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٦٩-١٧٠

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٣٣

(٥) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٨٠

محبا للشرفاء ويكرمهم ويقربهم إليه ويحسن إليهم^(١)

ومنذ أواخر القرن السابع الهجري أخذ الاحتفال بالمولد النبوي الشريف صيغة رسمية في جميع بلاد المغرب^(٢) وارتبط بالاحتفال بالرسول و تكريمه وتعظيمه ظهور الأشراف والإغداق عليهم^(٣) وكانت ليلة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف تبدأ في يوم الثاني عشر من ربيع الأول فكان الاحتفال تعظيماً وإجلالاً من نفوس السلاطين والوزراء وكذلك نفوس جميع السكان، فكانوا يقومون بانشاد الأشعار في المكاتب^(٤) في حضور الأشراف^(٥) ويقراءون التحايس وانشاد الأبيات الشعرية التي تتضمن المدائح النبوية في جيل تشع الأنوار من الشموع والقناديل، كما كان السلاطين ووزراؤهم يكثرون من الأطعمة، ويقومون بتوزيعها على الفقراء والأشراف^(٦) وكان السلاطين والوزراء يلبسون أفضل الثياب وكذلك الناس والأشراف من أجل الاحتفال بهذا اليوم العظيم^(٧).

وكان السلاطين الحفصيون ووزراؤهم يمنحون الهبات والاقطاعات إلى

(١) ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٦٧.

(٢) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص ١٥٢-١٥٤، إبراهيم القادري: المغرب والأندلس، ص ٩١ هامش.

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٧٠.

(٤) أحمد بن عامر: الدولة الحفصية، ص ٨٧.

(٥) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٧٠.

(٦) أحمد عامري: الدولة الحفصية، ص ٨٧.

(٧) ابن الأحرر: نثر فرائد الجمان، ص ٤٨، الونشريسي: المعيار، ج ١، ص ٢٧٨-٢٧٩، مختار العبادي: الاسلام في أرض الأندلس، مجلة عالم الفكر، الكويت، ١٩٧٩، ص ٢٩.

الأشراف في الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف، فأعطى السلطان أبو فارس عبد العزيز نقيب الأشراف الكثير من الهبات^(١) وكان محباً لهم حباً شديداً فيكرم القاطنين بالبلاد وجمع الأشراف والوافدين عليه من جميع البلاد، وجعل لهم كسوة فاخرة وكان يعولهم وبجعل لهم رواتب واقطاعات حتى كثروا عليه بالعاصمة واستوطنوها لما شاهدوه من بر واحسان وحب من السلطان الحفصي ووزراؤه^(٢)

وكان للأشراف في العهد الحفصي مكانة عظيمة لدى السلاطين الحفصيين العظماء ووزراؤهم فكان لهم هوهم المحبوب من السلطة ولم يعترض عليهم الفقهاء، فكان لهم أشعار يتغنون بها في يوم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف وكان السلاطين العظماء يساندوهم ويقدمون لهم الأبقار لذبحها، وكان عامة المسلمين يحضرون من أجل الأخذ من هذه الذبائح^(٣) على العكس من فترات الضعف والانحيار أبان فترات سيطرة الوزراء وضعف السلاطين وقيام الحروب والثورات والصراعات على الحكم، نجد من الناس من شتم أحد الشرفاء ولم يكن يعرفه أنه من الأشراف، وعندما قيل له أنه شريف، زاد الرجل شتم الشريف بأبائه وأجداده^(٤)، حيث أفتى الفقهاء بوجوب احترام الأشراف وعدم التعرض لهم لأنتسابهم الى النبي وآل بيته الشريف حيث فرضت

(١) ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٧٩، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٧٠.

(٢) ابن الشجاع: المصدر السابق، ص ١٢٩.

(٣) البرزلي: فتاوى، ج ٦، ص ٤٢٦، الأنصاري: فهرست الرصاع، ص ٢٤،

(٤) الونشريسي: المعيار، ج ٢، ص ٣٧٠-٣٧١.

عقوبات على من يتعرض لهم أو يفترى عليهم^(١) وتضرر الأشراف في حالة ضعف الدولة لأنها لم تنفق عليهم وتقل عطاءات السلاطين والوزراء المستبدين^(٢) وقلة هيبة الأشراف مع مراحل الانحطاط والانهيار الحفصي^(٣) فظهر كثير من يدعي أنه من الأشراف^(٤).

ومع انهيار وتدهور وضعية الأشراف ضعفت وقلت الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف، حيث أهمل الوزراء المستبدون والسلاطين الضعفاء الاحتفال به بسبب النفقات الكثيرة والباهظة التي تنفق في هذه الاحتفالات بسبب قلة المجابي وتدهور أحوال البلاد الاقتصادية وبالتالي تأثر الفقراء والمساكين بقلة الاحتفالات كما كانوا يحصلون عليه من مأكّل وشراب وثياب^(٥)

واحتفل الوزراء الحفصيون مع سلاطينهم بجميع الأعياد الموجودة المواسم والشهر الكريم في المجتمع الحفصي، كما كانوا يعظمون شهر رمضان المبارك، فيقومون بتلاوة القرآن الكريم وختمه وكذلك الجلوس في المساجد

(١) الونشريسي: المعيار، ج٦، ص ٣٤٦، كمال ابو مصطفى: حوانب من حياة المغرب، ص ٣٥.

(٢) محمد القبلي: مراجعات حول المجتمع والثقافة، ص ١٠٦، محمد اسماعيل: المرجع السابق ص ٣٣٩

(٣) الونشريسي: المعيار، ج١٢، ص ٢٢٧-٢٣٠، محمد القبلي: مراجعات حول المجتمع، ص ٦١٥.

(٤) الونشريسي: المعيار ج٢، ص ٢٢٧-٣٢٠.

(٥) رشا سالم: المرجع السابق، ص ٣٤٥، محمد اسماعيل: المرجع السابق، ص ٣٤.

والجوامع في معظم ليالي الشهر المبارك^(١) كما احتفلوا بيوم عاشوراء، فيقوم أصحاب الداكين بتزيين دكاكينهم، وبكثرة الطرب، ويلعب الأطفال، ويقوم الأهالي بالذبح يوم التاسع من شهر المحرم، وحرص السلاطين العظماء ووزرائهم على إخراج الأموال والصدقات والكسوة للفقراء والمساكين وتوزيع عليهم ملابس جديدة^(٢) وكانت تغلق الأسواق وتقف حركة البيع والشراء أيام الاحتفالات بالمناسبات المختلفة^(٣) وكانوا يحتفلون أيضا بيوم النصف من شعبان حيث جرت العادة أن يشتري الآباء النقيير لأبنائهم للعب والنفخ فيه فيكثر الصخب والضجيج في جميع الأحياء دلالة على البهجة والسرور^(٤) وكان السلاطين العظماء والوزراء المخلصون لهم يشاركون العلماء والفقهاء العبادة والخشوع وصيام هذا اليوم الطيب^(٥) وفي الأعياد يخرج السلاطين والوزراء وكذلك جميع فئات البلاد الحفصية بالثياب الجديدة الجميلة ويصلون بالجوامع^(٦).

وختام القول:

نجد أن الوزراء الحفصيين قد لعبوا دورًا هامًا في المجتمع الحفصي فشاركوا في الأحباس على المساجد والمدارس والزوايا، وكانت علاقاتهم الاجتماعية مع

(١) أحمد عامر: الدولة الحفصية، ص ٧٨.

(٢) مجهول: الاستبصار، ص ١٥٤.

(٣) التجاني: الرحلة، ص ١٥٤؛ منى سيد عبد العزيز، المرجع السابق، ص ٢٥٧.

(٤) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص ١٣١، إبراهيم القادري: المغرب والأندلس، ص ٩١.

(٥) إبراهيم القادري: المرجع السابق، ص ٩١ هامش

(٦) التجاني: الرحلة، ص ١٥٤، منى سيد عبد العزيز، المرجع السابق، ص ٢٥٧.

العامة تختلف حسب قوة وضعف السلطان فأبان فترات القوة وسيطرة السلطان على مقاليد الحكم وتحليه بالعدل والحكمة نجد أن وزراؤه تستقيم علاقتهم مع العامة ولكن في فترات الضعف وسيطرة الوزراء على الحكم أساءوا إلى العامة وتحكموا فيها وزادوا فقرهم فقرًا وكذلك انتشرت الآفات الاجتماعية التي نخرت في جسد الدولة الحفصية أثناء أطوار الضعف وساعدت القضاء عليها وزوالها كما كان للوزراء دورهم الفعال في ازدهار الصوفية في إفريقية الحفصية سواء فترات الضعف أو القوة حيث نجد أن كل من السلطان الوزير سعى إلى التقرب إليهم. وكان للآفات الاجتماعية التي انتشرت في فترات الضعف دورها في القضاء على بعض العادات الحفصية مثل الاحتفالات المختلفة.